التقارير

– ١ –

يسوع مخلّص البشر

١. إنّ طريقة ممارستي التأمّل حاليًا هي هذه: قليلاً ما أكون في حال التأمّل فأستطيع إعمالَ الخطاب العقلي، لأنّ النفس تبدأ حالاً في الإختلاء، وتمكث في سكينة أو في انجذاب بحيث لا أقدر أن أستخدم أيًّا من حواسي؛ وما خلا السمع – والسمعُ لا يساعدني على الفهم –، فأيةُ حاسّةٍ أخرى لا تجذبني نفعًا.

٢. كثيرًا ما يحدث لي هذان الاختلاء وارتفاعُ الروح فجأة (من دون أن أقصد التفكّر في أمور الله، بل وأنا أعالج أمورًا أخرى؛ وأحسب أني لو حاولت جاهدةً أن أمضي في التأمّل فلن أستطيعَ القيامَ به لأنّ يبوسةً كبرى آخذة بي يزيد من تأثيرها الآلام الجسدية)، فتنشلّ حركتي، وتأتيني في لحظةٍ المفاعيلُ والفوائدُ الناجمة عنهما. ويحدث هذا بدون أن أكون نعمتُ برؤيا أو فهمتُ شيئًا، وبدون أن أعرف مكان وجودي؛ بل وأنا إخال النفس تَتْلَفُ، أراها تحصّل مكاسبَ لو أردتُ، أنا، تحقيقَها في سنةٍ أظنّ ذلك لا يستطاع في ضوء عِظَم تلك المكاسب.

٣. وتنتابني أحيانًا أخرى اندفاعاتٌ جامحة، فتنشلّ حركتي. إخال روحي ستفيض فآخذ بإطلاق أصواتٍ وأنادي اللهَ بهياج شديد. أعجز أحيانًا عن المكوث جالسة لتقيّؤٍ شديد يعاودني، وهذا الألم يصيبني بدون أن أسعى إليه؛ وإنّه لألمَ تتمنّى النفس أن لا تنعتقَ منه ما دامت على قيد الحياة: إنّه شوقي إلى فقدان الحياة مع الظهور بأنني حيّة، ولا علاجَ مستطاع لذلك، لأنّ العلاج لرؤية الله هو الموت، وأنا لا أستطيع اتخاذه. وأنا في هذه الحال، تَرى نفسي ان الجميع وافرو التعزية بدون الموت سواها، وأنهم، من دونها، يجدون لمشقّاتهم علاجًا. ان القبضَ الذي تُحْدِثه هذه الحالة لمن الشدّة بحيث إذا لم يعالجه الربّ بانخطافٍ ما، يهدأ فيه كلُّ شيء، ويغمرُ النفسَ سكينةٌ كبرى فترتاح – كأن ترى أحيانًا شيئًا ما تشتهيه، أو كأن تفهم أحيانًا أمورًا أخرى،– ويجعل الخروج من ذلك الألم مستحيلاً.

٤. تنتابني أحيانًا أخرى رغباتٌ في خدمة الله تصحبها اندفاعات شديدة أيّ شدّة لا أستطيع احتمالها، ويصحبها غمٌّ لإدراكي كم أنني قليلة النفع. يخال لي آنذاك أن لا مشقّة ولا أيّ شيء آخر يمكنه اعتراض طريقي، ولا موت، ولا استشهاد إلاَّ وأتجاوزه بسهولة. يحصل هذا بدون إنعام النظر، بل فجأة، ولا أدري من أين تأتيني هذه العزيمة. إخالني أودّ لو أطلق أصواتًا لأُفهِم الجميعَ كم يهمُّهم أن لا يكتفوا بأشياء قليلة، وكم هو وفيرٌ الخير الذي سيعطينا الله بإعداد أنفسنا لذلك. أقول إنّ حصول هذه الرغبات يتمّ بطريقة أحسّ فيها أنني أتمزّق داخليًّا، فأنا أريد ما لا أستطيع. كأني بهذا الجسد يقيّدني فلا اصلح لخدمة الله في شيء، ولا للقيام بواجبات حالتي؛ فلولاه لكنت أصنع أشياء يشار إليها على قدر ما تساعدني قواي؛ وهكذا، عندما أراني ولا حول لي كي أخدم الله، أعاني من هذا الألم عناءً لا أستطيع وصفه. وينتهي بي الأمر إلى الرضا، وإلى الاختلاء، وإلى تعزياتٍ من الله.

٥. حدث لي أحيانًا أخرى، عندما كانت تنتابني هذه الأشواق لخدمته، أن أشعر برغبة في ممارسة تقشّفات؛ غير أني ما استطعت فعلها. ولكانت تخفّف عنّي كثيرًا، بل تخفّف عنّي وتُفرحني، ولو انها ليست بشيء تقريبًا نظرًا إلى ضعف جسدي. ولو استجبت لهذه الأشواق، لفعلت الكثير الكثير في ما أظنّ.

٦. يشقّ عليَّ كثيرًا أحيانًا أن أضطرَّ إلى التعاطي مع أحدهم، ويُشجعني أيَّ شجوٍ فأسرف في البكاء، لأن شوقي كلّ شوقي أن أبقى في عزلة؛ ومع أنني أحيانًا لا أصلّي ولا أطالع، فإنّ الوحدة تعزّيني، والتحادث خصوصًا مع الأهل والأقارب، أراه ثقيلاً وإخالني مُباعَةً إلاَّ أن يكونَ مع من أتداول وإيّاهم شؤونٌ في التأمّل والنفس؛ فمع هؤلاء أتعزّى وأفرح، ولو انهم يُرهقونني أحيانًا وأودّ لو أنني لا أراهم، بل أمضي إلى حيث أجدني وحيدة، ولو أن هذا نادرًا ما حصل، خصوصًا مع من أتداول معهم شؤونَ ضميري، فإنّهم يعزونني دائمًا.

٧. وأحيانًا أخرى يشقّ عليّ كثيرًا أن أضطر إلى الأكل والنوم، في حين أراني عاجزةً أكثر من أيِّ شخصٍ عن التخلّي عنهما، وإنّما أفعل ذلك لأخدمَ الله فأقدّمه له. أرى الوقت قصيرًا دائمًا وأنه يفوتني للصلاة، لأنّ بقائي وحيدة لا يُتعبني أبدًا. أرغب دائمًا في أن يتوافر لي الوقت للمطالعة، لأني هويت المطالعة كثيرًا. أطالع القليل، فما أن آخذ كتابصا وسرّني آوي إلى الاختلاء، فيحلّ التأمّل محلَّ القراءة، ويدون الأمر قليلاً لأنّ لديّ مشاغل كثيرة؛ ولئن كانت هذه المشاغل صالحة فلا توفّر لي السرور الذي يمنحنيه التأمّل؛ وهكذا أمضي دائمًا باحثة عن الوقت، وهذا، في ظنّي، ما يجعلني أجد كلَّ شيء...؟؟؟ حين أراني لا أعمل ما أريد وأرغب فيه.

٨. كلّ هذه الرغبات في الفضيلة وأكثر منها، أعطاينها ربُّنا بعدما وهبني التأمّل الساكن هذا مصحوبًا بالإنخطافات؛ وأجدني تحسّنت أيَّ تحسّن فأحسب أني كنت في السابق ضحيّة الضياع. أنّ هذه الانخطافات والرؤى تخلق لديّ المكاسب التي سأتحدّث عنها؛ وأقول: إذا كان فيّ شيء خيّر فقد وردني منها.

٩. لقد خطر لي تصميم صارم على أن لا أهين الله ولو إهانة عرضية، وانّني أقبل ألف ميتة ولا أفعل هذه الإهانة وأنا أدرك أنّني أفعلها، تصميمٌ على أن أيّ شيء اعتقده مزيدًا من كمال ويقدّم خدمة أكبر لربّنا في حكم من يعنى بشأني ويدبّر أمري أو أشعر بأيّ شيء من هذا القبيل، فلا أعمل به أو أنكفئ عن تنفيذه ولو مقابل أيّ كنز. وأن افعل العكس، فلن يكون لديّ في اعتقادي الجرأة لأطلب شيئًا من الله ربّنا، حتى لممارسة التأمّل، ولو انني في كلّ هذا ارتكب أخطاء وهفوات طاعةً لمعرّفي، ولو شابها نقص؛ لكن إذا فهمت انه يريد شيئًا أو أنه يأمرني به، بحسب فهمي، فلا أتقاعس عن فعله، وإذا تراجعت فأعتقد أنني كنت في ضلال كبير. رغبة في الفقر ولو شابها نقص؛ ومع هذا يبدو لي أني لو ملكتُ كنوزًا وفيرة فلن يكون لي ريعٌ خاص، ولا أموال باسمي، ولا أدنى اهتمام بملك. لن أتمنّى إلاَّ الحصول على ما هو ضروري فقط. ومع هذا فإني أشعر بنقصٍ كبير لديَّ في هذه الفضيلة؛ ورغم أني لا أرغب في امتلاك شيء لنفسي، أتمنّى الحصول عليه لكي أعطيه، ولو اني لا أشتهي لنفسي ريعًا أو أيّ شيء آخر.

١٠. لقد حصلت لي فائدة من كلّ الرؤى التي نعمتُ بها، ما لم يكن ذلك خداعًا من الشيطان. وفي هذا الموضوع اسلّم الأمر إلى معلّمي اعترافي.

١١. عندما أرى شيئًا جميلاً، مُبهجًا، كالماء مثلاً، والحقول، والزهور، والألوان، والموسيقى، الخ... إخالني لا أريد أن أرى أو أسمع؛ فالفرق بين هذه وبيكن ما اعتقدت أن أرى شاسع، ففقدت الرغبة فيها. لقد بات اكتراثي لها يسيرًا ولم يبقَ عندي منها إلاَّ حركة أوّلية نحوها، وتبدو لي قُمامة[١].

١٢. حين أحادث علمانيين أو أتداول معهم، ولا بدّ من ذلك، ولو في أمور التأمّل، فإن طال الحديث ولو للتسلية، ما لم يكن ضروريًا، أفعل ذلك مرغمةً لأنه يؤلمني شديدًا. إن المسلّيات التي كانت محبَّبة إليَّ وأمورَ العالم تصدمني ولا أطيق رؤيتها.

١٣. إنّ رغباتي هذه التي ذكرت، في أن أحبّ الله، وأخدمه، وأراه، لا يصحبها تفكّر، كما كان يحدث لي سابقًا حين كنت أظنّني وافرةَ العبادة وأسكب دمعصا غزيرًا. لكن يغمرها اتقادٌ وورع بالغ فأردّد القول: إن لم يُداوني الله لانخطافٍ ما تجد النفس فيه ارتياحًا، في اعتقادي، فأتصوَّر ان من شأنها القضاء على حياتي سريعًا.

١٤. إن الذين أراهم أوفر تقدمًا وعلى هذا القدر من العزم، ومتجرّدين، ومندفعين، أحبّهم حبًّا جمًّا وأريد أن أتعاطى مع أمثالهم، وفي ظنّي أنهم يساعدوني. أمّا الفاترون الذين أراهم يتلمّسون الأشياء التي يمكن صنعها وفقًا للعقل على الأرض فإخالهم يسبّبون لي ضيقًا ويدفعونني إلى الاستعانة بالله، وبالقديسين الذين يتصدّون لهذه الأشياء التي تُرعبنا الآن؛ ليس لأني قادرة على شيء، بل لأني أعتقد أنَّ الله يساعد الذين يبادرون إلى عمل الكثير من أجله، وأنه لا يخذل أبدًا من يثقون به وحده، وأودّ لو أجد مَن يساعدني على ترسيخ اعتقادي هذا، وليس على اهتمامي بما أكل وما البس، بل أن ألقي هذا الهمّ على الله. لا يعني إلقاء الهمّ على الله في احتياجاتي ان لا أسعى إليها، بل أن لا يسبّب لي هذا السعي قلقًا. ومنذ أن أعطاني هذه الحريّة، اراني على ما يرام في هذا الموضوع، وأحاول أن أنسى ذاتي على قدر ما أستطيع النسيان. وأظنّ أنَّ ربّنا منحني هذه النعمة منذ ما دون السنة.

١٥. أمّا المجد الباطل، ففي علمي، والمجد لله، أنّ لا مبرّر لاعتداد به، لأَني أرى بوضوح أن الله هو من يهب هذه الأشياء، وأن لا دور لي فيها؛ بل إنّ الله بالأحرى يجعلني أشعر بحقاراتي؛ لأني مهما أعملت فكري فلا أظنّني أستطيع أن أرى كلّ هذه الحقائق التي أدركها في لحظة.

١٦. حين أتكلّم على هذه الأشياء، منذ أيام قليلة إلى الآن، إخالها تخصّ شخصًا آخر. كنت، سابقًا، اعتبر إهانة أحيانًا أن تعرف عنّي هذه الأمور، أمّا اليوم فلا أحسبني أفضل حالاً بسببها، بل إنّني أكثر حقارة لأنني قلّما أستفيد من مِننٍ بهذه الوفرة. والثابت، في أيّ حال، اعتقادي أنّه لم يوجَد في العالم من هو شرٌّ منّي؛ وعليه أرى أنّ فضائل الآخرين أوفر وأوفر استحقاقًا، واني لا أنفكّ أتلقّى مِننًا، وأن الله لا بدّ من أن يعطيَهم دفعةً واحدة ما يريد أن يعطيني على الأرض، فأتوسّل إليه ألاّ يكافئني في هذه الحياة؛ ولذا اعتقد ان الله انّما قادني في هذا الطريق لأنني ضعيفة وحقيرة.

[١] أي زبالة.

١٧. عندما أقوم بالتأمّل، بل كلّما استطعت إعمالَ الفكر قليلاً تقريبًا، لا أستطيع أن أطلب الراحة أو أسأل الله إيّاها، ولو رغبت في ذلك، لأني أرى انه، هو، إنّما عاش في المشقّات، فأتوسّل إليه أن يعطينيها، على أن يمنحني أولاً نعمةً لاحتمالها.

١٨. في ظنّي أن كلَّ هذه الأمور ذاتِ الدرجة السامية من الكمال تنطبع فيَّ أثناء التأمّل أيّ انطباع، فتُزعجني رؤيةُ كلّ هذه الحقائق واضحة أيّ وضوح، فتبدو لي أشياءُ العالم حماقات؛ فأحتاج عندئذٍ إلى أن أُعنَى بتذكّر موقفي حيال أشياء العالم هذه في السابق، فيبدو لي الأسف على فَقْد عزيز والحزن من المشقّات حماقة، أو أقلّه أن يدوم طويلاً الألمُ، أو حبُّ الأهل، والأصدقاء، الخ؛ أعني أنني أمضي في حذر عندما أعتبر ما كنت عليه وما كنت أشعر به.

١٩. إذا رأيت في بعض الأشخاص أمورًا يبدو واضحًا أنها خطايا، لا أستطيع الحكم على هؤلاء بأنهم أهانوا الله؛ وإذا توقفت عند هذا الموضوع – قليلاً أو لمحةً –، فما جزمت أبدًا ولو كنت أراه جليًّا؛ وكان يبدو لي أن حرصَهم جميعًا على خدمة الله يوازي حرصي. ففي هذا الشأن أتاني [الله] منّةً عظيمة وهي أن أتوقّفَ أبدًا عند أمر سيّء إذا خطر لي ذكره فيما بعد، فإن يخطر لي، تحضرني من ذلك الشخص دائمًا فضيلة. وعليه، فإنّ هذه الأشياء لا تُتعبني أبدًا. ما خلا، بوجه العموم، البدَع التي تحزنني كثيرًا؛ وكلّما فكّرت فيها تقريبًا أراها وحدها مشقّة تسبّب الأسف. ويؤسفني أيضًا أن أرى أشخاصًا يجهدون أنفسهم في التأمّل فيعودون القهقرى. ان هذا الأمر يؤلمني، لكنّه ألم خفيف لأنني أحاول أن لا أتوقّف عنده.

٢٠. أجدني أيضًا قد تحسّنت بشأن ترفيهات كنت تعوّدتها، ولو تحسّناً جزئيًّا لأني أراني منقطعةً عنها دائمًا بل من حين إلى حين.

٢١. كلّ ما رويته هو، كما يقدَّر لي أن أفهم، ما يحدث عادة في نفسي؛ وفكري موجَّه دائمًا إلى الله؛ حتى ولو عالجتُ أمورًا أخرى؛ فبدون أن أريد ذلك، كما قلت، لا أدري من يُبقيني منتبهة، ليس دائمًا، بل حين أعالج بعض أمور ذات أهمية؛ وهذا، تمجّدَ لله، يخطر لي فترة بعد فترة ولا يُشغلني دائمًا.

٢٢. تتوالى عليَّ بضعة أيام — ولو انها قليلة إذ تدون ثلاثة أو أربعة أو خمسة — إخال في أثناءِها ان جميع الأمور الصالحة، وحرارة التقوى، والرؤى تنقطع عنّي، بل تمّحي من ذاكرتي، حتى ولو أردت أن أعرف ما كان فيَّ من صلاح لعجزتُ عن ذلك. كلّ شيء يبدو لي حُلُمًا، وأقلّه اني لا أستطيع أن أتذكّر شيئًا. تضغط عليَّ آلام الجسد مجتمعة؛ يضطرب العقل فأعجز عن التفكير في أمر يخصّ الله، ولا أدري لأيّ شريعة أخضع. إذا قرأتُ، لا افهم؛ إخالني مغمورة بالذنوب ولا همّة لدي إطلاقًا للفضيلة، والعزم الشديد الذي امتلكه عادة آل بي إلى التصوّر أني أعجز عن مقاومة أدنى تجربة أو اغتيابٍ يُطلقه العالم. يخطر لي إذ ذاك، أنني لا أصلح لشيء، فمن تراه يدفعني لأكون فوق مستوى العامّة؛ فيأخذ بي الحزن. فإخالني أخدع جميع من لهم فيّ شيء من الثقة؛ وأتمنّى الاختفاء فلا يراني أحد؛ لا أشتهي الوحدة عندئذٍ من أجل الفضيلة بل عن جُبن. أتصوّرني أرغب في مخاصمة جميع الذين يعارضونني. أعيش وسط هذه المعمعة غير ان الله يمنحني منّة فلا أهينه أكثر من عادتي، ولا أسأله أن يخرجني منها، بل أن أبقى فيها دائمًا إذا كانت تلك إرادته، على أن يأخذني بيده فلا أهينه، وأتوافق معه من كلّ قلبي. وأعتقد انه إن لم يَدعْني دائمًا في هذه الحالة فتلك منّة عظمى يمنحنيها.

٢٣. هناك أمرٌ يثير عجبي: عندما أكون في هذه الحالة، فإنّ كلمة واحدة من تلك التي أعتدتُ سماعها، أو رؤيا ما، أو برهة اختلاء تدوم ما تدوم تلاوة "السلام الملائكي"، أو تقدّمي للتناول، يكفي ليعود السكون إلى النفس والجسد، وليعود العقل سليمًا صافيًا أي صفاء، ولأستعيدَ الشجاعة والرغبات التي اعتدت امتلاكها. ولقد خبرت هذه الحالة مرارًا عديدة؛ فمنذ أكثر من نصف سنة أشعر بوضوح ان صحّتي الجسدية سليمة، أقلّه عندما أتناول القربان، وفي أثناء الانخطافات أحيانًا. ويدوم ذلك أكثر من ثلاث ساعات أحيانًا، وأحيانًا أخرى أشعر بتحسّن كبير طوال النهار. وليس ذلك توهّمًا، في رأيي، لأني تنبّهت له ودققتُ فيه. وعليه، حين أكون في الاختلاء، لا أخشى أيَّ مرض. والحقيقة انني عند أقوم بالتأمّل كعادتي سابقًا، لا أشعر بهذا التحسّن.

٢٤. كلّ ما قلته يجعلني اعتقد ان هذه الأشياء من الله. فلأنني أعرف ما كنت عليه سابقًا، وانني كنت ماضية في طريق الهلاك، وانتقلت، بوقتٍ قصير، إلى هذه الأشياء، فالثابت أن نفسي كانت تصاب بذهول، وأنا لا أدري من أين تأتيني هذه الفضائل. ما كنت أعرف ذاتي، وكنت أرى أن هذه الأشياء توهب لي ولا أكسبها بجهدي. أعرف حقيقة الأمر كلّها وبكلّ وضوح، وأدرك أنني لست منخدعة؛ فما كان ذلك وسيلةً ليجذبني الله بها إلى خدمته فقط، بل لينتشلني من الجحيم، وهذا ما يعرفه معلّمو اعترافي الذين أفضيت إليهم باعتراف عام.

٢٥. ثمّ حين أصادف شخصًا يعرف شيئًا ما عنّي، أودّ لو أني أقصّ له سيرتي، لأني أحسب شرفًا لي أن يمجَّد ربّنا، ولا يهمَّني شيء آخر. والربّ يعرف ذلك حقًا، إلاّ أن أكون عمياء فعلاً، فلا كرامة، ولا حياة، ولا مجد، ولا أيّ خير للجسد أو للنفس يقدر أن يشدّني إليه، ولا أتمنّى أو أشتهي منفعتي، بل مجده. لا أستطيع الاعتقاد ان الشيطان سعى بواسطة خيراتٍ عميمة كهذه ليكسب نفسي ويعود فيخسرها بعدئذٍ؛ فأنا لا أظنّه غبيًا هذا الغباء؛ وعلى كوني قد استحقّ بفعل خطاياي أن أكون فريسة الضلال، لا أقدر أن أصدّق ان الله أسقط من حسابه صلواتٍ وصلواتٍ يقدّمها من أجلي، منذ سنتين، كثيرٌ من الصالحين – وأنا لا أنفكّ أسألهم هذا فحسب – لقدّر لي الربّ أن أعرف ما إذا كان الأمر يؤول إلى مجده، وإلاَّ فليقُدْني في طريق آخر. وأعتقد أن جلاله الإلهي ما كان ليسمحَ بأن تستمرَّ هذه الأمور قدمًا لو لم تكن صادرة عنه.

٢٦. هذه الاعتبارات، مضافة إلى حجج قدّيسين كُثُر، تشجّعني عندما تعتريني المخاوف من أن لا تكون هذه الأمور صادرة عن الله، نظرًا إلى شدّة حقارتي. ولكن عندما أكون مسترسلة في التأمّل، وفي الأيام التي أنعم فيها بالسكينة وبالتفكير في الله، فلئن يجتمع مَن في العالم مِن ذوي العلم وقدّيسين وينزلوا بي ما أمكن تصوّره من عذابات، وكنت على استعداد للتصديق، فلن يستطيعوا إقناعي بأنّ الأمر من الشيطان، لأنّه يتعذَّر عليَّ التصديق. فعندما أرادي إلزامي هذا التصديق، راودني الخوف نظرًا إلى صفات من يحدثونني في ذلك وأخذت أفكّر في أنّهم لا بدّ من أنّهم يقولون الحقيقة، واني، على ما أنا عليه، كنت فريسة الضلال؛ ولكن عند أول كلمة أو برهة اختلاء، أو رؤيا، كان يتبدّد كلّ ما قد قالوه لي، فلا أطيق مزيدًا، وأؤمن أن المصدر هو الله.

٢٧. ولئن يُحْتَمَل اعتقادي انّ الشيطان قد يتدخّل أحيانًا – وقد فعل، كما قلت ورأيت –، غير ان تدخّله، يحدث مفاعيل مختلفة، وفي اعتقادي، ان ذا خبرة لا يسقط في خداعه. فوق كلّ هذا، أقول: رغم اعتقادي ان الأمر صادرٌ حقًا عن الله، فلا أفعل شيئًا أيًّا يكن السبب، لا يرى فيه من يتولّى شأني خير خدمةٍ لربّنا. فقناعتي كانت دائمًا أن أطيع، وأن لا أخفي عنهم شيئًا، وهذا ما يلائمني.

٢٨. غالبًا ما أوبَّخ على أخطائي بطريقة تهزّني في الصميم، وتُسدى إليَّ تنبيهات إلى خطرٍ فعليّ أو محتملٍ من أمر أمر أتداوله، توبيخ وتنبيهات أفادتني أيّ فائدة أذ كثيرًا ما أحيت في ذاكرتي خطاياي السابقة فأتألم منها أيَّ ألم.

٢٩. لقد أفضتُ في الكلام كثيرًا؛ غير أَني، في الحقيقة، إخالني قَصَّرْتُ في الحديث عن الخيور التي تغمر نفسي لدى خروجي من التأمّل؛ وأجدني فيما بعد كثيرة النقائص، لم أجْنِ فائدة، شديدة الحقارة. قد لا أفهم الأشياء الصالحة، بل قد أقع في ضلال؛ غير ان الفرق في حياتي مشهور، ما يدفعني إلى التفكير في ما قلت. وفي كلّ ما رويت أفصحت عمّا أعتقد انني شعرب به حقًّا.

هذه هي الكمالات التي أشعر إنّ الربّ صنعها فيّ، أنا، الحقيرة أيّ حقارة، الناقصة أي نقص. أني أحيل كلّ شيء لحكم حضرتك، لأنك تعرف حال نفسي، كلّ نفسي.

– ٢ –

١. يبدو لي أنّ قد مضى ما يزيد على سنة مذ كتبت ما دوّنت هنا. لقد أخذني الله بيده خلال العام كلّه فلم تكن حالي أسوأ بل أرى تحسّنًا كبيرًا كما سأروي. له الحمد على كلّ شيء.

٢. لم تنقطع الرؤى والمكاشفات، بل صارت أكثر سموًّا. لقد علّمني الربّ طريقة للتأمّل أراني فيها أكثر تقدّمًا، وأوفر ما أكون تجرّدًا عن أشياء هذه الحياة، ونشاطًا وحريّة. لقد ازدادت الانجذابات، ويكون من شدّتها وطبيعتها أحيانًا أن أعجز عن الصمود أمامها ظاهرًا؛ حتى إذا كنت في صحبة، يعرف أمرها لأنها تحصل بطريقة يستحيل معها إخفاؤها، إلاَّ أن أُفهم الحاضرين ان ذلك إغماء لأني أعاني من مرض في القلب. ورغم اني أبذل جهدًا كبيرًا في البدء للمقاومة، أجدني أحيانًا عاجزة عن ذلك.

٣. امّا الفقر، فأحال الله حياتي فيه منّة كبرى؛ فلست أرغب في امتلاك حتى الضروري إلاَّ في سبيل الصدفة، ولذا أقصى ما أشتهيه الحياة في مكان يقوم عيشه عليها فحسب.

أظنني لو كنت أعيش حيث أتأكّد من أن لن يفوتني المأكل والملبس، فلن أكون وفيّة للنذر ولمشورة المسيح وفاءً كاملاً كعيشي في دير لا ريح له، وينقصه شيء ما أحيانًا، والخيرات التي تُكْتَسَب بالفقر الحقيقي تبدو لي وفيرة فلا أريد أن أخسرها. وأجدني غالبًا راسخة في الإيمان فأرى ان الله يا يمكنه التخلّي عمّن يخدمه، ولا يخامرني أدنى شكّ بأنّه ما أَخلَّ قط ولا يمكن أن يخلّ في أي وقت بوعده، ويستحيل عليَّ أن أقتنع بخلاف ذلك، أو أخشى حصوله؛ ولذا آسف آسفًا شديدًا حين يُشار عليَّ بتأمين ريع، فألتفت إلى الله.

٤. أظنّني اليوم أكثر رأفةً بالفقراء ممّا كنت سابقًا. وأحسّ بشفقة كبيرة عليهم فأودّ في مساعدتهم بحيث لو جاريت رغبتي لأعطيتهم ما عليَّ من ثياب. لا يثير فيَّ أدنى نفور محادثتهم أو لمسهم، وأرى أن هذا موهبة من الله حديثة؛ فمع اني كنت أتصدّق عليهم حبًّا بالله، كانت تفوتني الرأفة الطبيعية بهم. فأنا أشعر بتقدّم ملحوظ في هذا الموضوع.

٥. أمّا بشأن الأمور التي تقال فيَّ اغتيابًا، وهي كثيرة وتسبّب لي ضررًا بالغًا، فأشعر بأني حقّقت أيضًا تقدّمًا، ولا أراها تؤثّر فيَّ أكثر ممّا تؤثّر في أبله، وإحال قائليها على حقّ أحيانًا، بل دائمًا تقريبًا. ولقّلة ما أتأثّر بالاغتياب، لا أراه خليقًا بأن اقدّمه إلى الله؛ ولأن نفسي في ضوء خبرتي، تكسب كثيرًا، فإنّي أرى انّهم يفعلون معي صنيعًا حسنًا، وهكذا لا يبقى لديَّ أدنى أثر من عداء حين أباشر التأمّل، علمًا بأني ما أدري باغتياب بحقّي حتى يسبّب لي شيئًا من المعاكسة دون أن يقلقني أو يحدث اضطرابًا. بل حين أرى آخرين أحيانًا يشفقون عليّ، فإنّي أضحك في سرّي، لأنّ كلّ الإهانات في هذه الحياة سخيفة أيّ سخف، فيجب أن لا يعيرها اهميّة؛ أتصوّر نفسي سابحة في حلم حتى إذا استيقظتُ لم يبقَ منه أثر.

٦. يهبني الله أشواقًا حيّة، ومزيد رغبة في الوحدة، وتجرّدًا أكبر فأكبر، كما سبق فقلت، ورؤى فهمت بفضلها كلّ شيء، ولو تحرّكت الأصدقاء والصديقات والأقارب، وهذا أدنى الأمور، لأنّ الأقارب عبء عليَّ ثقيل. فإذا طرأت خدمة صغيرة أؤديها لله، أتركهم بكامل حريتي مسرورة، فأجد السلام، هكذا، في كلّ مكان.

٧. هناك بعض أمور أشير عليها بها في موضوع التأمّل، تثبت لديّ صحّتها تمامًا. فلأن الله يمنحني مِنَنَه، أجدني تقدّمت كثيرًا كثيرًا، أمّا أن أخدمه من تلقائي، فأنا بائسة جدًّا، فلقد حظيت بتنعّم أوفر، بفعل الظروف، ولو انه يسبّب لي ألمًا كبيرًا، أمّا التفكير، فقليل، وأمّا الكرامة التي أحاط بها فكثيرة، وغالبًا ما تأتي خلافًا لإرادتي.

– ٣ –

١. ما كتبت بيدي فقد كتبته منذ حوالي تسعة أشهر. ومذ ذاك الحين، والمِنن التي مَنَحنيها الله لم تتراجع، إخالني تلقيت منه ثانية، بحسب فِهمي، مزيدًا وافرًا من الحركة. كنت أظنني، حتي الساعة بحاجة إلى آخرين، وكنت أوْفَر ثقة بمساعدات من العالم؛ أمّا الآن؛ فأفهم بوضوح انهم كلّهم عيدان من إكليل الجبل يابسة ولا أمان في التعلّق بها لأنها، إذا وقع عليها ثقلٌ معاكساتٍ ما أو اغتياب، تنكسر وعليه فلي في خبرتي ان العلاج الحقيقي لعدم السقوط هو تعلّقنا بالصليب، وثقتنا بمن رفع عليه. ففيه أجد صديقًا حقيقيًا، وأراني بذلك صاحبة مُلك أستطيع، كما يبدو لي، أن أقاوم العالم كلّه إذا خاصمني، على أن لا يتخلّى الله عنّي.

٢. قبل أن ادرك هذه الحقيقة الواضحة جدًّا كنت أهوى أن يحبّني الجميع. أمّا الآن فلا أعير ذلك أدنى اهتمام، بل اراه يتعبني إلى حدّ؛ إلاَّ أن يكون هؤلاء مَن أتعاطى معهم أمور نفسي، أو من أظنني أفيدهم؛ أمّا أولئك، فأرغب في محبّتهم لكي يحتملوني، وأمّا هؤلاء، فلكي يكونوا أوفر استعدادًا للاقتناع بقولي لهم أنّ كلّ شيء باطل.

٣. في مشقّات كبيرة، واضطهادات، ومناهضات جابهتها في الأشهر الأخيرة، أعطاني الله شجاعة بالغة، تزداد ثباتًا كلّما ازدادت الصعوبات شدّة فما كَلَلْتُ من الاحتمال. أمّا الذين كانوا يسيئون القول فيّ، فليس فقط ما كنت أثير حفيظتي عليهم، بل أظنني كنت أكنّ لهم حبًّا جديدًا. لا أدري كيف كان يحصل ذلك، هبة سمحاء من يد الربّ.

٤. حين أشتهي شيئًا، فأنا معتادة، بطبعي، أن أشتهيه بقوّة. أمّا الآن، فرغباتي تجري في سكينة كبرى بحيث إنّني، عندما أراها تحقّق، لا أدري حتى إذا كنت أشعر براحة. فالألم واللذّة، خارج أمور الصلاة، معتدلٌ أثرهما، فكأني بلهاء، وكبلهاء أقضي أيامًا.

٥. إنّ الاندفاعات التي تنتابني أحيانًا وانتابتني لممارسة أفعال التوبة اندفاعاتٌ شديدة؛ وإذا فعلت إماتةً ماء مقلّما أشعر بها لشدّة الرغبة فيها، حتى انني إخالها أحيانًا، بل دائمًا تقريبًا، متعة خاصّة، على إقلالي من الإماتات بسبب شدّة مرضي.

٦. يسبّب لي غالبًا ألمًا قويًّا جدًّا يبلغ حاليًا أشدّه اضطراري إلى تناول الطعام، خصوصًا حين أكون سابحة في التأمّل. لا شكّ في أنه ألم كبير لأنه يدفعني إلى البكاء كثيرًا، فأعتبر بالكلام عن كربن بدون وعي تقريبًا، وهو أمر ما إعتدت أن أفعله. فرغم جسامة المشقّات التي قاسيتها في هذه الحياة، لا أذكر أني أفصحت عنها؛ فأنا لست على الإطلاق في هذه الأمور، لأن لي قلبًا قاسيًا.

٧. أتمنى في باطني بأشدّ ممّا تعوّدت أن يتفرّغ أشخاص، متصلّبون من العلم خصوصًا، ليخدموا الله بكلّ تجرّد وان لا يحسبهم عن ذلك أيّ شيء في الدنيا، لاعتباري كلَّ ما فيها خدعة. فحين أرى احتياجات الكنيسة المتعدّدة، وهي تحزنني أيَّ حزن، أَعتبر الاغتمام لشيء آخر سخرية؛ ولذا، لا أكفّ عن أن أعهد بهم إلى الله؛ ففي حسابي أنّ شخصًا فردًا كاملاً تمامًا، يحرّكه حبّ لله فوّار، يجدي نفعًا أوفر فما يجديه فاترون كثيرون.

٨. أجدني في قضايا الإيمان أوفر شجاعة. وأظنني قادرة أن أجابه وحدي جميع أتباع لوتير وأبيّن لهم ضلالهم. أتأسف جدًّا لهلاك هذه النفوس الكثيرة. وأرى أخرى كثيرة تتقدّم [في طريق الكمال]، وأعرف بوضوح ان الله أراد أن يتمّ ذلك بواسطتي، كما أعرف أنّ نفسي، بفضل جوده، تزداد محبّة له يومًا بعد يوم.

٩. في اعتقادي أني لو قصدت جاهدت أن أملك مجدًا باطلاً لما أستطعت ذلك؛ ولا أرى كيف يمكنني التفكير بأن واحدة من هذه الفضائل تخصّني؛ فقد رأيت منذ وقت قصير إنّي ما ملكت إحداها طوال سنوات ولا انفكّ الآن عن تلقّي مِنن بدون أن أقوم بخدمة كأني أَتفه شيء في العالم. وعليه، أفكّر أحيانصا كيف أنّ الجميع يتقدّمون ولا أتقدّم لأنني لا أصلح لشيء. في الواقع، ليس ما أقول تواضعًا، بل انها الحقيقة، وحين أدرك أنّني مقصّرة هذا التقصير تعتريني مخاوف أحيانًا من أن أكون مخدوعة. فلذا أرى بوضوح أنّ الإيحاءات والانخطافات – وليست فيها فريقًا ولا أعدو كوني لها لوحًا –، هي سبب هذه المكاسب. وهذا يطمئنني ويوفّر لي مزيدًا من الارتياح، فأستلقي بين ذراعَي الله واثقة برغائبي وهي، كما أعرف بالتأكيد، أن أموت من أجله وأن أفقد كلّ راحة، مهما كانت النتيجة.

١٠. في بعض الأيّام أتذكر مرارًا ومرارًا قول القديس بولس – ولو أنّه لا يتحقّق فيّ –، فأراني لست أحيا، ولا أتكلّم، ولا أملك إرادة، بل انّ في مَنْ يدبّرني وينفحني قوّة، فإذا بي كأنني غريبة عن ذاتي وإذا بالحياة همّ علي شديد الثقل. وأثمن ما اقدّمه لله من خدمة، ما دام عيشي منفصلة عنه ثقيلاً أي ثقل، هو أن أهوى الحياة حبًّا به. وأريدها حياة تصحبها مشقّات شديدة واضطهادات؛ فما دمت غير أَهل للتقدّم، أودّ أن أكون

أهلاً للاحتمال؛ وأني لأطيق عذابات العالم كلّها لقاء مزيدًا من كسب ولو زهيدًا، أعني تنفيذ إرادته على وجه أفضل.

١١. ما من أوتيتُه في التأمّل، ولو مضت عليه سنون، إلاَّ ورأيته قد تحقّق. والأمور التي أراها، وما أدركه عن عظائم الله، وكيف سيّرها، هي من الكثرة بحيث اني ما من مرّة تقريبًا شرعت في التفكير فيها إلاَّ وقصّر عقلي، فأكون كمن يرى أشياء تتجاوز كثيرًا طاقته على الفهم، فأغرق في الاختلاء.

١٢. يحفظني الله أيَّ حفظ كي لا أعينه بحيث يتملّكني العجب في الواقع أحيانًا، إذا إخالني أرى العناية الكبرى التي يرعاني بها من دون أن يكون لي أيّ دور في ذلك تقريبًا، على كوني كتلة من الخطايا والمساوئ قبل حصول هذه الأشياء، وما كنت أحسبني سيّدة نفسي لكي أكفّ عن اقترافها. وإن كنت أودّ أن تعرف فلكي تُفْهَم قدرة الله العظيمة. له الحمد إلى الأبد الآبدين. آمين.

يسوع مخلّص البشر

١٣. مطلع هذا التقرير ليس بخطّ يدي؛ فالتقرير سلّمته لمعرّفي، وهو صنع هذه النسخة دون أن ينزع من الأصل أو يزيد عليه شيئًا. كان رجلاً عميق الروحانية ولاهوتيًا قديرًا – ومعه كنت أتداول أمور نفسي كلّها –، وتبادلَ الرأي فيه مع الآخرين من ذوي العلم، ومنهم الأب مانثيو، فلم يجدوا شيئًا لا يتوافق والكتاب المقدّس. هذا ما يؤمّن لي الهدوء، على إدراكي أنّ ما دام الله يقودني في هذا الطريق، يتحتّم عليّ ألاّ أثق بنفسي البتة؛ وهذا ما فعلته دائمًا ولو آسفة كثيرًا.

أعتبر، حضرتك، ان كلّ ما رويت يحميه سرّ الاعتراف، كما التمست منك.

– ٤ – أ

١. مضى على هذه الراهبة أربعون عامًا منذ أن لبست الثوب الرهباني. ومن العام الأول بدأت التأمّل بأسرار آلام ربّنا وبخطاياها، من دون أن تتفكّر أبدًا في شيء فائق الطبيعة، بل كانت تفكّر في الخلائق أو في أشياء وتستنتج منها كم سريعًا يزول كلّ شيء؛ وكانت تصرف في هذا الموضوع فترات من النهار من دون أن يخطر ببالها أن تشتهي أكثر من ذلك، لأنّها كانت نفسها غير مستحقّة حتى التفكير في الله.

– ٤ – ب

١. مضى على هذه الراهبة أربعون عامًا منذ أن لبست الثوب الرهباني؛ ومن العام الأول، بدأت تتأمّل بأسرار آلام ربّنا فترات من النهار، وبخطاياها، من دون أن تتفكّر أبدًا في شيء فائق الطبيعة، بل في الخلائق أو في أشياء تستنتج منها كم سريعًا يزول كلّ شيء؛ وتنظر في الخلائق عظمة الله والحبّ الذي يكنّه لنا؛ وهذا كان يزيدها رغبة في خدمته (فما كان الخوف دائفقًا إلى ذلك وما كانت، هي، تحفل بالخوف) وتشتدّ رغبتها دائمًا في

أن يكون ممجّدًا وأن تزداد كنيسته نموًّا؛ إلى هذه النيّة كانت تتوجّه صلاتها كلّها، من دون أن تسأل لنفسها شيئًا؛ بل كانت تعتبر احتمالها عذاب المطهر يسيرًا مقابل نموّ الكنيسة ولو نموًّا قليلاً جدًّا.

٢. أمضت على هذه الحال نحو اثنتين وعشرين سنة في يبوسات كبيرة، وكانت تطالع أيضًا كتبًا جيّدة. ومنذ حوالي ثماني عشرة سنة، حين بدأت تدرس إنشاء أول دير أسّسته في أڤيلا للحافيات (نحو ثلاث سنوات قبل ذلك)، أَخذ يتراءى لها أنّ ثمّة من يخاطبها باطنيًا أحيانًا، وأنها ترى أحيانًا أخرى رؤى وتَلقى إيحاءات. ما رأَت شيئًا قط، ولا شاهدته بعين الجسد، بل تمثّل لها صورة كالبرق، غير انه كان ينطبع فيها عميقًا ويؤتي كثيرًا من المفاعيل، فكأنّها تراه بعين الجسد وأكثر.

٢. أمضت على هذه الحال نحو اثنتين وعشرين سنة في يبوسات كبيرة، ممّا خطر في بالها قط ان تشتهي مزيدًا، لأنّها كانت تحسب نفسها حقيرة بحيث ترى انها لا تستحقّ حتى التفكير في الله، بل ان جلاله يسدي إليها منّة كبيرة بالسماح لها القيام في حضرته للصلاة؛ وكانت تطالع أيضًا كتبًا جيّدة.

ومنذ حوالي ثماني عشرة سنة، حين بدأت تدرس إنشاء أول دير أسّسته للحافيات، وكانت ذلك في أڤيلا (ثلاث سنوات قبل ذلك أو سنتين بل أظنّ ثلاثًا)، أخذ يتراءى لها ان ثمّة من يخاطبها باطنيًا أحيانًا، وانها ترى أحيانًا أخرى رؤى وإيحاءات باطنيّة بعين النفس؛ فهي ما رأت شيئًا قط بعين الجسد. ويبدو لها انها سمعت خطابًا مرتين، لكنذها لم تفهم شيئًا. عندما كانت ترى هذه الأشياء باطنيًا، كان ذلك بمثل صورة تتمثّل لها ولا تدوم في أكثر الأحيان إلاّ بقدر ما يدوم البرق؛ غير انها كانت تنطبع فيها عميقًا وتؤتي مفعولاً كما لو انها رأتها بعين الجسد وأكثر.

٣. كانت الراهبة كثيرة الخشية، فما كانت تجرؤ على البقاء وحدها حتى أثناء النهار أحيانًا؛ ورغم بذلها أقصى جهد، كانت تعجز عن اجتناب هذه [الرؤى]، فيلازمها غمّ بالغ الشدّة خوفًا من أن تكون خداعًا شيطانيًا؛ فبدأت تتعاطى الأمر مع أشخاص روحانيين من الرهبانية اليسوعية من بينهم الأب أرواث، مفوّض الرهبانية – الذي صدف ان مرّ من هناك، والأب فرنثيسكو – الذي كان دوق غانديا–،

وقد تداولت معه مرتين، ورئيس اقليمي في الرهبانية، هو أحد المشيرين الأربعة موجود حاليًا في روما ويدعى خليل غونثاليث، ثم ومع رئيس اقليم قشتالة حاليًا، ولو ان التعاطي معه كان أدنى؛ والأب بلطاسار القاريث، رئيس سلمنكا حاليًا، والذي كان معرّفها مدَّة ست سنوات؛ وتعاطت الأمر مع رئيس قرنقه، المدعو سالازار، ورئيس سقوبيا، المدعو سانتا ندير، ولكن مدّة أقصر، ورئيس بورغوس المدعو ريبالدا، وكان على خلاف كبير معها إلى أن تعاطى معها؛ والدكتور پابلو هرنانديث في طليطلة، وكان مستشارًا في محكمة التفتيش؛ وأوردونييث آخر، كان رئيسًا في أڤيلا — فعندما كانت تزور تلك الأمكنة كانت تقصد لقاء [الروحانيين] الأوفر اعتبارًا.

٣. كانت الراهبة من طبعها شديدة الخشية، حتى أنها ما كانت تجرؤ على البقاء وحدها فترات أثناء النهار؛ ومهما جدّت في محاولاتها كانت تعجز عن اجتناب هذه [الرؤى]، فيلازمها غمّ شديد أيّ غمّ خوفًا من

أن يكون ذلك خدعة شيطانية. فبدأت تتعاطى الأمر مع أشخاص روحانيين من الرهبانية اليسوعية من بينهم الأب أرواث مفوّض الرهبانية – الذي صدف أن مرّ من هناك، والأب فرنثيسكو — الذي كان دوق غانديا –،

وقد تداولت معه مرتين؛ ورئيس اقليمي موجود حاليًا في روما، وهو أحد الأربعة المشار إليهم، ويدعى خيل غونثاليت؛ ثم رئيس اقليم قشتالة حاليًا؛ ولو ان التعاطي معه كان أدنى؛ والأب بلطاسار القارث، رئيس سلمنكا حاليًا وقد كان معرّفها ست سنوات في هذا الوقت، ورئيس قونقه حاليًا، المدعو سالازار؛ ورئيس شقوبيه، المدعو سانتاندير؛ ورئيس يورغوس، ويدعي ريبالدا، وقد كان على خلاف معها إذا كان قد سمع عنها هذه الأمور حتى بعد أن تعاطى معها؛ والدكتور بابلو هرنانديث في طيطلة، وكان مستشارًا في محكمة التفتيش؛ والدكتور غوثيرّيث، الذي كان رئيس سلمنكا حيث اتصلت به؛ وآباء آخرون بعضهم من الرهبانية [اليسوعية] مشهور عنهم انّهم روحانيون كانت تقصدهم في الأمكنة التي تمضي إليها لتأسيس الأديرة.

٤. أمّا الأخ بطرس القنطرة فقد تداولت معه كثيرًا وهو بذل جهدًا كبيرًا دفاعصا عنها.

٤. والأب بطرس القنطره، وكان رجلاً قدّيسًا من رهبان مار فرنسيس الحفاة، فقد تداولت معه كثيرًا، وهو من بذل جهدًا كبيرًا ليعرف ان ما بها روح صالح.

٥. في ذلك الوقت، ظلّوا ست سنوات يخضعونها لاختبارات عديدة، وهي لا تنفكّ تذرف الدمع غزيرًا وتعاني الغمّ؛ وكلّما زادت الامتحانات ازدادت [الرؤى] وتكاثرت الانخطافات أحيانًا كثيرة في التأمّل وحينًا خارج التأمّل. كانت تُتلى صلوات كثيرة ويحتفل بقدّاسات ليقودها الله في طريق آخر لأنّ خوفها كان مريعًا حين لا تكون سامحة في التأمّل، ولو انه كان يلحظ تقدّم واضح في كل ما يعود إلى خدمة الله، ولا يُرى شيء من العُجب والكبرياء، بل كانت تتجنّب من كان يعرف ما يحصل لها، ويثقل عليها التحدّث به أكثر ممّا لو كان حديثًا عن خطايا إذ تخال انّهم سيسخرون منها ويرون انها أمور نساء سخيفات.

لقد ظلّوا ست سنوات يخضعونها لاختبارات عديدة – كما كتبت مطوّلاً وسيأتي الحديث عنه–، وهي لا تنفكّ تذرف الدمع غزيرًا وتعاني الأحزان؛ وكلّما زادت الامتحانات، ازدادت [الرؤى] وتعطّل القوى والانخطافات أحيانًا كثيرة، ولو لم يتعطّل إدراكها.

كانت تتلى صلوات كثيرة ويُحتفل بقدّاسات ليقودها الله في طريق آخر لأنّ خوفها كان يبلغ أقصى شدّة حين لا تكون سابحة في التأمّل، ولو انه في جميع الأمور التي تؤدّي إلى مزيد كبير من تقدّم نفسها كان يُرى فرق كبير، فلا ظاهرة عُجب ولا تجربة عُجْب أو كبرياء، بل كان يأخذها الخجل كثيرًا وتهرب حين ترى ان أمرها مشهور، ورغم انها ما كانت تطلع أحدًا على شيء ما خلا معرّفيها وأشخاصًا عليهم أن ينيروا سبيلها – وكان يؤسفها كشف الأمر لهؤلاء كما لو كانت خطايا كبيرة –، إذ تخال انهم سيسخرون منها، وانها أمور نساء سخيفات، وقد طالما كرهتها.

٦. ومنذ حوالي ثلاث عشرة سنة، تقريبًا، مرّ من هناك أسقف سلمنكا، وكان كما أعتقد قاضيًا في محكمة التفتيش في طيطلة، كما سبق ان كان كذلك هنا؛ فسعَتْ، هي، إلى التحدّث إليه لتزداد طمأنينة، فاطلعته على كلّ شيء. فقال لها ان لا شأن لكل هذا بوطيفته، لأنّ كلّ ما كانت تراه وتفهمه يزيدها دائمًا رسوخًا في

الإيمان الكاثوليكي، وانها كانت دائمًا ثابتة فيه وما تزال، وتحدوها رغبات قويّة جدًّا للعمل لمجد الله وخير النفوس حتى لترضى الموت مرارًا من أجل نفس واحدة. وإذ رآها مثقلة بالهمّ، أشار عليها أن تكتب للمعلّم أڤيلا، وكان لا يزال حيًّا، تقريرًا مطوّلاً عن كلّ شيء، فهو خبيرٌ بأمور التأمّل وجوابه سيهدئها. ففعلت كما قال لها؛ فكتب لها [المعلم أڤيلا] وطمأنها كثيرًا. وكان من أمر هذا التقرير ان جميع ذوي العلم الذين أطّلعوا عليه — وكان هؤلاء معرّفيها –، قالوا انه جزيل النفع في الشؤون الروحية، فأمروها ان تنقله وتجعله كتيّبًا آخر لبناتها، وكانت رئيسة، تسدي إليهنّ فيه ببعض النصائح.

٦. منذ حوالي ثلاث عشرة سنة، تقريبًا، بعد تأسيس دير القديس يوسف في أڤيلا، – الذي كانت قد انتقلت إليه من الدير الآخر — مرّ من هناك أسقف سلمنكا الحالي، وكان قاضيًا في محكمة التفتيش (ولا أدري أفي طيطلة أم في مدريد، وكان قبلاً في أشبيليه) اسمه سوتو؛ فسعت، هي، إلى التحدّث إليه لتزداد طمأنينة واطّلعته على كلّ شيء، فقال لها ان لا شأن لكّل هذا بوظيفته، لأنّ كل ما كانت تراه وتفهمه يزيدها رسوخًا في الإيمان الكاثوليكي، وانها كانت دائمًا وما تزال راسخة فيه وتحدوها رغبات قويّة جدًّا للعمل لمجد الله وخير النفوس، وهي مستعدّة أن تذوق الموت مرارًا من أجل نفس واحدة. وإذ رآها مثقلة بالهمّ أشار عليها أيضًا أن تكتب كلّ شيء وتكتب سيرتها كلّها من دون أن تهمل شيئًا وتوجهه إلى المعلم أڤيلا وهو رجل خبير بأمور التأمّل ولا بدّ أن جوابه سيهدئها. ففعلت كما أشير عليها وكتبت خطاياها وسيرتها. فكتب لها وعزّاها وطمأنها كثيرًا. وكان من أمر هذا التقرير ان جميع ذوي العلم الذين أطلعوا عليه — وكان هؤلاء معرّفيها — قالوا انه جزيل النفع في الشؤون الروحية، فأمرها أن تنقله وتجعله كتيّبًا آخر لبناتها (لأنها كانت رئيسة) تسدي إليهنَّ فيه ببعض نصائح.

٧. **رغم كلّ هذا، ما كانت المخاوف تفارقها أحيانًا. ورأت أن أناسًا روحانيين يمكن أيضًا أن يكونوا مخدوعين مثلها؛ فكانت تريد أن تتداول المر مع ذوي علم كبار ولو انهم لا يمارسون التأمّل كثيرًا، لأنها ما كانت تريد إلاَّ أن تعرف إذا كان كلّ ما يحصل لها متوافقًا مع الكتاب المقدّس. وكانت تتعزّى أحيانًا إذ ترى انها لئن تستحقّ بخطاياها ان تكون مخدوعة، فإنّ الله لن يسمح بأن يكون ضحية الخداع كثرة من الصالحين كالذين** يرغبون في تنويرها.

٧. رغم كلّ هذا، ما كانت المخاوف تفارقها أحيانًا. وإذ بدا لها ان أشخاصًا روحانيين يمكن أيضًا أن يكونوا مخدوعين مثلها، سألت معرّفها أن يوافق على تداول الأمر مع بعض ذوي العلم ولم انهم لا يمارسون التأمّل كثيرًا لأنّها ما كانت تريد إلاَّ أن تعرف إذا كان كلّ ما حصل لها متوافقًا مع الكتاب المقدّس.

كانت تتعزّى أحيانًا إذ ترى انها لئن تستحقّ بخطاياها أن تكون مخدوعة، فإنّ الله لن يسمح بأن يكون ضحيّة الخداع كثرة من الصالحين كالذين يرغبون في تنويرها.

٨. ولهذه الغاية بدأتْ تتشاور في هذه الأمور مع الآباء الدومنيكان وكانت تعترف لديهم غالبًا قبل أن تحصل لها هذه [الظاهر]. وهؤلاء هم الذين استشارتهم: الأخ ڤيثنّي بارّون معرّفها مدّة سنة ونصف سنة في طيطلة، حين مضت لتؤسّس [ديرًا] هناك، وكان، هو، مستشارًا في محكمة التفتيش ولاهوتيًا كبيرًا؛ فهو طمأنها كثيرًا. وكان الجميع يقولون لها انها ما دامت لا تهين الله وتعترف بحقارتها، فما عليها أن تخاف شيئًا. واعترفتُ كذلك مع المعلّم الأخ دومنغو بانييث – وهو حاليًا مستشار المحكمة المقدّسة في بلد الوليد – ست سنوات،

وتتداول الأمر معه بالرسائل عندما يطرأ شيء جديد. ومع المعلم تشافيش. وإلى جانب المعرّف الثاني استشارت الأخ پدروايبانييث، وكان إذ ذاك استاذًا في أڤيلا ولاهوتيًا كبيرًا جدًّا، وراهبًا دومنيكيًا آخر هو الأخ غرثيا دي توليدو. وتداولت مع الأخ برتلماوس دي مدينا، الأستاذ في سلمنكا، وكانت تعرف انه يخاصمها مخاصمة قويّة، لأنّه سمعها هذه الأشياء عنها؛ وبدا لها ان هذا سيقول لها خيرًا من أيّ منهم إذا كانت مخدوعة (وقد مضى على ذلك سنتان)، وسعت إلى الاعتراف لديه، وقدّمت له تقريرًا مطوّلاً عن كلّ شيء أثناء إقامتها هناك، واجتهدت في جعله يرى كلّ ما كانت قد كتبت ليعرف حياتها معرفة فضلى. فطمأنها كثيرًا جدًّا، بل أكثر من الجميع، وصار من ثمّ صديقًا لها أمينًا. واعترفت كذلك فترة مع الأب المعلّم الأخ فيليب دي مينيسيس حين ذهبت لتؤسّس ديرًا في بلد الوليد، وكان هو رئيسًا أو مديرًا لمدرسة القديس غريغوريوس تلك، وكان، إذ سمع هذه الأشياء، قد ذهب إلى أڤيلا محدثها بمحبّة كبيرة راغبًا في معرفة ما إذا كانت مخدوعة، وإذا لم يكن هناك سبب للدسّ عليها ذاك الدسّ؛ فعاد راضيًا كلّ الرضا. وتشاورت في الأمر بنوع خاص مع رئيس اقليمي من رهبانية القديس دومنيكوس يدعى ساليناس، رجل روحاني عميق ويتقي الله كثيرًا؛ كما تشاورت مع أستاذ آخر يقيم حاليًا في شقوبية، يدعى الأخ دييغو دي بانغواس، ذكيّ مرهف الذهن.

٨. ولهذه الغاية بدأت تتشاور في هذه الأمور مع آباء من رهبانية القديس المجيد دومنيكو الذين كانت قد اعترفت لديهم سابقًا، والذين تذاكرت معهم فيما بعد من هذه الرهبانية وهم: الأب الأخ ڤيثنتي بارّون معرّفها سنة ونصف سنة في طيطلة – وكان إذّاك معرّفًا في محكمة التفتيش – وكانت قد اتصلت به قبل ذاك سنوات عديدة وهو لاهوتي كبير. فهذا طمأنها كثيرًا. وكذلك طمأنها الآباء اليسوعيون: كانوا جميعًا يقولون بها إذا كانت لا تهين الله وتعترف بأنّها حقيرة فممّ تراها تخاف. واعترفت ست سنوات مع الأب المقدّم دومنغو بانييث – وهو حاليًا في بلد الوليد قَيّم على مدرسة القديس غريغوريوس –، وكانت تتصل به بالمراسلة كلّما طرأ طارئ، ومع المعلم تشافيس، ومع الأب المعلّم الأخ برثلماوس دي مدينا، استاذ اللاهوت في سلمنكا، وكانت تعترف انه يخاصمها مخاصمة قويّة لما سمع عنها في هذا الموضوع، وبدا لها ان هذا قد يقول لها خيرًا من الآخرين إذا كانت مخدوعة لقلّة ثقته بها، وقد حدث ذلك منذ ما يزيد قليلاً على سنتين. سعت إلى الاعتراف لديه وقدّمت له تقريرًا مطوّلاً عن كلّ شيء طوال مكوثها هناك؛ فاطّلع على ما كتبت كي يلمّ بالوضع إلمامًا افضل، فطمأنها كثيرًا، بل أكثر من الآخرين جميعًا وصار لها صديقًا. واعترفت كذلك بعض الوقت مع الأخ فيليب دي فينييس، عندما أسست الدير في بلد الوليد وكان، هو، رئيس مدرسة القديس غريغوريوس تلك، وكان، إذ سمع هذه الأشياء، قد ذهب إلى أڤيلا ليحدّثها بمحبّة كبرى، وهو يرغب في معرفة ما إذا كانت مخدوعة، ولينيرها، وإذا لم تكن [مخدوعة] ليدافع عنها حين يسمع وشاية بها، فكان راضيًا جدًّا. وتشاورت بنوع خاص مع رئيس اقليمي من رهبانية القديس دومنيكوس يدعى ساليناس، رجل روحاني عميق؛ ومع مقدَّم آخر يدعى لونار، كان رئيسًا على دير القديس توما في أڤيلا، وتشاورت مع مقدَّم آخر في شقوبية، استاذ يدعى الأخ ديغو يانغواس. وبعض آباء الرهبانية الدومنيكانية هؤلاء، بل ربّما جميعهم، كانوا في التأمّل متعمّقين.

٩. خلال سنوات عديدة، وكما أتاحت لها الظروف، خصوصًا إذ كانت تتنقّل من منطقة إلى منطقة لتأسيس الأديار، فإنّ آخرين غير هؤلاء أجروا عليها اختبارات كثيرة لأنّهم جميعًا كانوا يتمنّون أن يصيبوا في تنويرها، فطمأنوها واطمأنّوا.

٩. خلال سنوات عديدة، وكما أتاحت لها الظروف، خصوصًا إذ كانت تتنقّل من منطقة إلى منطقة لتأسيس الأَديار، فإنّ آخرين غير هؤلاء أجروا عليها اختبارات كثيرة لأنّهم جميعًا كانوا يتمنّون أن يصيبوا في تنويرها، فطمأنوها واطمأنوا.

١٠. لقد كانت دائمًا وما زالت خاضعة لكلّ ما يعلّمه الإيمان الكاثوليكي المقدّس، وصلاتها كلّها وصلاة الأديار التي أنشأتها قصدها أن يزداد هذا الإيمان نموًّا. وكانت تقول انه لم دفعتها إحدى هذه الأشياء إلى مناهضة الإيمان الكاثوليكي وشريعة الله، لما احتاجت إلى البحث عن براهين، بل لكانت رأت حالاً انها من عمل الشيطان.

١٠. لقد كانت تشتهي دائمًا أن تكون خاضعة لما يأمرونها به، ولذا كانت تحزن عندما تعجز عن الطاعة في هذه الأشياء الفائقة الطبيعة. وصلاتها صلاة الراهبات اللواتي انشأتهنَّ كان هدفها الأكبر نموّ الإيمان الكاثوليكي المقدّس؛ وانها، لهذه الغاية إضافة إلى خير الرهبانية، بدأت تأسيس الدير الأول. وكانت تقول انه لو دفعتها بعض هذه الأشياء إلى مناهضة ما هو من الإيمان الكاثوليكي وشريعة الله، لما احتاجت لأن تبحث عن لاهوتيين أو إقامة براهين، لأنّها كانت رأت حالاً انها من عمل الشيطان.

١١. ما بادرت قط إلى فعل شيء ممّا أدركته في التأمّل؛ بل إذا أشار عليها معرّفوها أن تفعل خلاف ذلك، كانت تفعله حالاً وتحيطهم دائمًا علمًا بكلّ شيء. ما اعتقدت أبدًا يقينًا أن الأمر من عمل الله. بحيث تقسم بالله على ذلك، رغم انها، بفضل المفاعيل والمِنن الكبيرة التي حصلت لها في بعض الأمور، كانت ترى انه روح صالح؛ لكنّها كانت تشتهي الفضائل دائمًا وهذا ما رسّخته في راهباتها بقولها ان الأكثر تواضعًا وإماتة تكون أسمى روحانية.

١١. ما بادرت قط إلى فعل شيء ممّا أدركته في التأمّل؛ بل عندما كان معرّفوها يسألونها أن تفعل عكس ذلك، كانت تفعله بدون شجن، وتحيطهم علمًا بكلّ شيء. ما اعتقدت أبدًا يقينًا أن الأعمر من عمل الله – على كثرة ما كانوا يؤكّدون لها ذلك – بحيث تقسم بالله على ذلك، رغم انها، بفضل المفاعيل والمِنن الكبيرة التي حصلت لها في بعض الأمور كانت ترى انه روح صالح؛ لكنّها كانت تشتهي الفضائل دائمًا فوق كلّ شيء، وهذا ما رسّخته في راهباتها بقولها ان الأكثر تواضعًا وإماتة، فتلك تكون أسمى روحانية.

١٢. هذا الذي كتبتْه، سلذمته إلى الأب المعلّم الأخ دومنغو بانييوس المقيم في بلد الوليد، وهو أكثر من تعاطت الأمور معه وتتعاطاها. وهي تظنّ انه قد يكون رفعه إلى ديوان التفتيش في مدريد. وفي كلّ ما كتبته تخضع لمراقبة الإيمان الكاثوليكي ولحكم الكنيسة. وما من أحد أسند إليها ذنبًا، لأنّها أمور ليست بيد أحد، وربّنا لا يطلب المستحيل.

١٢. كلّ ما قيل وكتب قدّمته للأب الأخ دومنغو بانييس المقيم في بلد الوليد، وهو الذي تعاطت الأمور معه أكثر ما تعاطت. وهو قد [ما كتبت] إلى ديوان التفتيش في مدريد. وفي كلّ ما قيل، تتقيّد بالإيمان الكاثوليكي وبالكنيسة الرومانية. وما من أحد أسند إليها ذنبًا، لأنّ هذه الأمور ليست بيد أحد وربّنا لا يطلب المستحيل.

١٣. ولأنّها اطلعت كثيرين على هذه الأمور بسب الخوف الذي كان يلازمها، انتشرت أي انتشار، ما أثار لديها اضطرابًا مريعًا وكان لها صليبًا. وتقول ان ذلك لم يكن بدافع التواضع، بل لأنّها كرهت دائمًا هذه الأمور التي تَسند إلى النساء. كانت تعنى عناية قصوى بألاّ تتقيّد بمن تظنّه يعتقد أن كلّ ذلك وارد من الله، لأنّها كانت تخشى أن يخدعَ الشيطان حالاً كليهما. فكانت تتداول أمر نفسها بارتياح أكبر مع من تراه حذرًا رغم انها كانت تتألّم ممّن كانوا يحتقرون هذه الأشياء احتقارًا تامًّا – لامتحانها –، لأنّ بعض هذه الأمور كانت، هي، تراها واردة من الله، ولا تتمنّى أن يدينوها قطعًا ما داموا لا يرون لحكمهم مبرّرًا، أو أن يعتقدوا انها كلّها واردة من الله لأنّها تدرك جيّدًا جدًّا إمكانية حصول خداع؛ ولذلك لم يخطر ببالها أبدًا أن تطمئن إطمئنانًا تامًّا إلى ما يمكن أن ينطوي على خطر. فكانت تجد بأقصى طاقتها في أن لا تهين الله بأدنى أمر، وأن تلتزم الطاعة دائمًا، وتعتقد أنّ هذين الأمرين يحرّرانها حتى من الشيطان.

١٣. أمّا سبب انتشار الأمر انتشارًا واسعًا جدًّا فهو انها كانت تعيش في خوف فأطلعت كثيرين عليه فكان بعض منهم يخبر به بعضًا. ثم انه حصل افراط في ما كانت قد كتبت فكلّفها اضطرابًا بالغًا، وحمّلها صليبًا ثقيلاً وأثار لديها دموعًا غزيرة. وتقول، هي، ان ذلك ما كان عن تواضع بل بسبب ما ذكر [من انتشار الأمر]، وكأنّ الله سمح بذلك ليعدّ بها؛ فما ان يندّد أحدهم بما قاله الآخرون، حتى يرى بعد قليل يزيدهم تنديدًا. كانت تعنى عناية قصوى بألاّ تتقيّد بمن تظنّه يعتقد ان كلّ ذلك وارد من الله، لأنّها كانت تخشى ان يخدع الشيطان حالاً كليهما. فكانت تتداول أمر نفسها بارتياح أكبر مع من تراه حذرًا، مع انهم كانوا يعذّبونها ايضًا، إذ يريدون ان يمنحنوها، حين يحتقرون احتقارًا تامًّا هذه الأمور لأنّها كانت ترى بعضها واردة حتمًا من الله فلا تتمنّى أن يدينوها قطعًا ما دامت لا ترى مبرّرًا لذلك، أو أن يعتقدوا انها كلّها واردة من الله، لأنّها تدرك جيّدًا جدًّا إمكانية حصول خداع. فكانت تجدّ بأقصى طاقتها في أن لا تهين الله وأن تلتزم الطاعة دائمًا، وتعتقد ان هذين الأمرين يحرّرانها حتى من الشيطان.

١٤. منذ أن حصلت لها أمور فائقة الطبيعة، صارت روحها تميل دائمًا إلى قصد الأكمل، ولازمتها تقريبًا رغبات كثيرة في التألّم؛ وفي الاضطهادات – وقد لقيت منها الكثير –، كانت تجد تعزية وتشعر بحبّ خاص لمضطهديها، وبرغبة في الفقر والوحدة شديدة، وفي مغادرة هذا المنفى لترى الله. وبفضل هذه المفاعيل وأخرى مشابهة لها، بدأت تطمئن، وترى ان روحًا يغرس فيها هذه الفضائل ليس بروح شرّير؛ وهذا ما كان مرشدوها يقولونه لها؛ ولئن لم يكن يزيل مخافتها فقد كان يخفّف شدّة معاناتها. ما دفعها روحها قط إلى إخفاء أمر، بل دائمًا إلى التزام الطاعة.

١٤. منذ أن حصلت لها أمور فائقة الطبيعة، صارت روحها تميل دائمًا إلى قصد الأكمل، ولازمتها تقريبًا رغبة كبرى في التألّم؛ وفي الشدائد التي كابدتها، وفي كثيرة، كانت تجد تعزية وتشعر بحبّ خاص لمضطهديها، وبرغبة في الفقر والوحدة شديدة، وفي مغادرة هذا المنفى لترى الله. وبفضل هذه المفاعيل وأخرى مشابهة لها بدأت تطمئن، وترى ان روحًا يغرس فيها هذه الفضائل لا يمكن أن يكون شريرًا، وهذا ما كان مرشدوها يقولونه لها؛ ولئن لم يكن يزيل مخافتها فقد كان يخفّف شدّة معاناتها. ما دفعها روحها قط إلى إخفاء أيّ أمر، بل دائمًا إلى التزام الطاعة.

١٥. ما رأت قط بعيني الجسد، كما سبق القول، بل بلمع ولطف عقلي بحيث كانت تفكّر، في البداية، أحيانًا، أن الأمر نزوة طارئة، ولا تستطيع استيعابه أحيانًا أخرى. كما انّها ما سمعت قطّ بعيني الجسد إلاّ مرَّتَيْن، وما فهمت شيئًا ممّا كان يقال لها، ولا عرفت من القائل.

١٥. ما رأت قطّ شيئًا بعيني الجسد كما قد قيل، بل بلمع ولطف عقلي، بحيث كانت تفكّر، في البداية، أحيانًا، في ما إذا الأمر نزوة طارئة، ولا تستطيع استيعابه أحيانًا أخرى.

١٦. لم تكن هذه الأشياء متواصلة، بل تحصل أحيانًا عندما تطرأ حاجة، مثلها عندما ظلّت إيّامًا تعاني من شدائد باطنيّة لا تطاق، ومن اضطراب داخلي خوفًا من أن يكون الشيطان يخدعها؛ وقد جاءَ غَرْضُه أكثر تفصيلاً في ذلك **التقرير** وتضمّن خطاياها فاشتهر أمرها كما اشتهرت تلك الأشياء لأنّ الخوف الذي كانت تعانيه أنساها اعتبارها ذاتها. ومع ان العذاب الذي لا يوصف أخذ بها؛ فما ان تسمع في داخلها هذه العبارة: "أنا هو، لا تخافي" حتى تُرى وادعة النفس، ناشطة، واثقة، دون أن تقدر على فهم مصدر ذلك الخير العظيم الذي يردِدَها؛ فما كان قد كفاها معرّف، أو ليكفيها لاهوتيون كثيرون بفيض من كلام ليوفّروا لها ذاك السلام وتلك الطمأنينة اللذين وفرتهما تلك العبارة الواحدة، وكانت تنفحها قوّةً أحيانًا أخرى رؤيا تبصرها. ولولا هذا، لما كانت استطاعت أن تحتملَ مشقّات هذا ثقلها، ومعارضات، وأمراضًا لا تحصى وما زالت تحتملها، فهي لا يفارقها أبدًا نوعٌ ما من المعاناة. قد تشتدّ أو تخفّ؛ لكنّها، عادة تقاسي آلامًا وأمراضًا عديدة أخرى ازدادت شدّة عليها بعد أن صارت راهبة.

١٦. وهذه الأشياء لم تكن متواصلة، بل حاصلة عن حاجة في أغلب الأحيان، مثلما حدث لها مرذة عندما ظلّت أيّامًا تعاني من شدائد باطنيّة لا تطاق ومن اضطراب في النفس خوفصا من أن يكون الشيطان يخدعها، كما أطيل الكلام عليه في ذلك التقرير، وقد تضمّن خطايا التي اشتهرت أيّ استشهار، فأثبتت فيه كسائر الأشياء، لأنّ الخوف الذي كانت تعانيه أنساها اعتبارها ذاتها. ومع ان هذا العذاب الذي لا يفوقه عذاب آخذ بها، فما ان تسمع في داخلها هذه العبارة: "أنا هو، لا تخافي"، حتى تُرى وادعة النفس، ناشطة، واثقة، من دون أن تقدر على فهم مصدر ذلك الخير الكبير الذي يَردها؛ فما كان قد كفاها معرّفون، وما كان يَكفيها لاهوتيون كثيرون بفيض من كلام لتوفّروا لها ذلك السلام وتلك الطمأنينة اللذين وفرتهما لها تلك العبارة الواحدة؛ وكان يحدث لها أحيانًا أخرى ان تبصر رؤيا فتتقوّى؛ ولولا هذا لما كانت استطاعت أن تحتمل مشقّات هذا يثقلها، ومعارضات، وأمراضًا لا تحصي وما زالت تحتملها، ولو دون تلك، فهي لا يفارقها أبدًا نوع ما من أنواع المعاناة. قد تشتدّ أو تخفّ؛ لكنّها، غالبًا تقاسي آلامًا وأمراضًا أخرى عديدة ولو انها ازدادت شدّة عليها بعد أن صارت راهبة.

١٧. إذا خدمت الربّ في شيء وتذكّرت المنى التي أَنعم عليها، فإنّ الأمر يخطر في ذاكرتها سريعًا؛ ولو انها تتذكّر المِنن غالبًا، لكنّها لا تتوقف عندها طويلاً مثلها عند الخطايا التي توسعها عذابًا دائمًا كوحل كريه الرائحة. فكونها فعلت جمًّا من الخطايا وخدمت الله خدمة يسيرة يجب أن يكون السبب الذي وقّاها تجربة المجد الباطل.

١٧. إذا خدمت الربّ في شيء ومرّت حالاً في ذاكرتها المِنن التي ينعم بها عليها، فلئن تتذكّر المِنن غالبًا، غير انها لا تستطيع التوقّف عندها طويلاً مثلها عند الخطايا التي توسعها عذابًا دائمًا كوحل كريه الرائحة. فكونها فعلت جمًّا من الخطايا يجب أن يكون السبب الذي وقّاها تجربة المجد الباطل.

١٨. ما دفعها روحها قط إلى الإدعاء بشيء، أو إلى ما ليس نقيًّا عفيفًا كلّ النقاء والعفّة، وصباها خصوصًا خوفًا عظيمًا من أن تهين الله ربّنا وميلاً لاتمام إرادته في كلّ شيء. وهذا ما تستعطفه ايّاه دائمًا، وترى نفسها مصمّمة تمامًا على ألاّ تخرج عنه، إلاّ أن يشير عليها أولياء أمرها – معرّفون ورؤساء –، فلا تتخلّف عن تنفيذه ثقةً منها بأنّ الربّ يساعد من يصمّمون على خدمته وتمجيده.

١٨. ما دفعها روحها قط إلى شيء لا يكون نقيًّا عفيفًا كلّ النقاء والعفّة، ولا تخال ممكنًا ان يدخل النفس إذا كان الروح صالحًا وفائق الطبيعة، لأنّها تهمل جسدها إهمالاً تامًّا ولا يخطر في بالها، بل انها تشغله كلّه في الله. ويعتريها خوف شديد من إهانة الله ربّنا فتتمنّى أن تعمل إرادته في كلّ شيء. هذا ما تستعطفه إيّاه دائمًا، وترى نفسها مصمّمة تمامًا على ألاّ تخرج عنه إلاّ في حال أشار عليها المعرّفون الذين يتولّون أمرها بأن تفكّر انه خدمة فضلى لله، فلا تتلكّأ عن فعله بعون الله ثقة منها بأن جلاله يساعد من يصمّمون على خدمته وتمجيده.

١٩. في هذه الحال، لا تعود تفكّر في نفسها ولا في مصلحتها وكأنّها غير موجودة، على قدر ما تفهم ذاتها ويدرك معرفوها.

ان كلّ ما هو مكتوب على هذا الورق كلام حقّ، وباستطاعته حضرتك ان تتأكّد منه، إذا أردت، لدى مرشديها ولدى جميع الأشخاص الذين تعاطت معهم الأمر منذ عشرين سنة. يدفعها روحها عادة إلى الاكثار من تمجيد الله، وتتمنّى ان يشترك العالم كلّه في هذا التمجيد ولو انه يكلّفها كثيرًا جدًّا. من هنا يأتيها الشوق في خير النفوس؛ ولأنها ترى كم هي قدرة الأشياء الخارجية في هذا العالم وكم هي ثمينة الأشياء الباطنية – ولا مجال للمقابلة بين هذه وتلك – فقد أدّى بها ذلك إلى احتقار أشياء العالم.

١٩. في هذه الحال، لا تعود تفكّر في نفسها ولا في مصلحتها وكأنها غير موجودة، على قدر ما تفهم ذاتها ويدرك معرّفوها. ان كلّ ما هو مكتوب على هذا الورق كلام حقّ ويمكن التأكّد من صحّته لدى مرشديها ولدى جميع الأشخاص الذين تعطت معهم الأمر منذ عشرين سنة. يدفعها روحها عادة إلى الإكثار من تمجيد الله، وتتمنّى أن يشترك العالم كلّه في هذا التمجيد، ولو انه يكلّفها كثيرًا. من هنا ينمو فيها الشوق إلى خير النفوس؛ وإذ ترى كم هي قدرة أشياء هذا العالم وكم هي ثمينة الأشياء الباطنية، ولا مجال للمقابلة بين هذه وتلك، فقد أدّى بها ذلك إلى احتقار أشياء العالم.

٢٠. أمّا شكل الرؤيا التي سألتني حضرتك عنه فهو انه لا يرى شيء لا داخليًا ولا خارجيًا÷، لأنها ليست رؤيا تخيّليّة؛ ورغم ان شيئًا لا يرى، فإنّ النفس تعرف مَن هناك، وفي أي وضع يتمثّل لها بوضوح أكثر ممّا لو تراه [بالعين]، إلاّ ان شيئًا خاصًّا لا يتصوّر لها بل كان شخصًا يشعر بأن شخصًا آخر قائم قريبًا منه، ولأنّه في الظلمة فلا يراه؛ لكنّه يدرك يقينًا انّه هناك، ولو أنّ هذه المقارنة غير وافية، لأنّ مَن في الظلمة، بطريقة ما، أو عبر سماعه ضجّة، أو إذا كان قد رأى الشخص سابقًا، يعرف انه هناك، أو يعرفه من قبل. أمّا هنا [في الرؤيا]، فلا

شيء من هذا، بل ان النفس تدرك بوضوح تامّ، من دون كلام خارجي أو باطني، مَن هو [الحاطر]، وفي أيّ وضع هو، وفي الوقت عينه ماذا يريد أن يبلغها. أمّا من أين، وأمّا كيف، فلا تدري؛ لكن الأمر يجري على هذه الصورة، ومهما استمرّ على هذه الحال فلا تستطع أن تجهله، وعندما تنقطع فلا تتوصل إلى تصوّره كما كان قبلاً مهما بذلت من جهد، لأنّه ترى عندئذٍ انه تخيّل وليس حضورًا، ذلك ان الحضور ليس بيدها؛ وعلى هذا النحو تجري الأمور الفائقة الطبيعة جميعها. ولهذا فإنّ من ينفحها الله بهذه المِنّة تعتبر نفسها لا شيء، لأنّها ترى ان الأمر هبة وانها لا تستطيع أن تنقص منه أو تزيد عليه شيئًا، وهذا ما يجعلها تلوذ بمزيد من التواضع كبير وبحبّ لخدمة هذا الربّ العظيم القوّة خدمة دائمة، القادر على أن يصنع ما لا نستطيع فهمه على الأرض، فمهما أوتى الإنسان من علم، تفوت إدراكه أشياء.

فليكن مباركًا إلى أبد الآبدين، آمين، من يوتي هذه الأشياء.

٢٠. أمّا شكل الرؤيا التي تريد حضرتك معرفتها فهو انه لا يرى شيء خارجيًا ولو داخليًا؛ لأنّها ليست رؤيا تخيّليّة؛ ورغم أنَّ شيئًا لا يرى، فإنّ النفس تعرف من هناك وفي أي وضع يتمثّل لها بوضوح أكثر ممّا لو تراه [بالعين]، إلاَّ ان شيئًا خاصًّا لا يتصوَّر لها، بل، فلنفترض، كأنّ شخصًا يشعر بأنّ شخصًا آخر قائم قريبًا منه ولأنّه في الظلمة فلا يراه؛ لكنّه يدرك يقينًا انَّه موجود هناك، ولو ان هذه المقارنة غير وافية، لأنّ مَن في الظلمة، بطريقة ما، عندما يسمع ضجّة، أو كان قد رأى الشخص سابقًا، يعرف انه هناك، أو يعرفه من قبل؛ أمّا هنا [في الرؤيا]، فلا شيء من هذا، بل ان النفس تدرك بوضوح تامّ، من دون كلام باطنيّ أو خارجيّ، من هو [الحاضر]، وفي أي وضع هو، وفي الوقت نفسه ماذا يريد أن يُبلغها.

أمّا من أين، وأمّا كيف تفهم، هي، ذلك. فلا نعرف. لكن الأمر يجري هكذا، ومهما استمرّ على هذه الحال فلا تستطيع أن تجهله؛ وعندما ينقطع، فلا تتوصّل إلى تصوّره كما كان قبلاً مهما بذلت من جهد، لأنّها ترى عندئذٍ انه تخيّل وليس حضورًا، ذلك ان الحضور ليس بيدها؛ وعلى هذا النحو تجري الأمور الفائقة الطبيعة جميعها. ولهذا فإنّ من ينفحها الله بهذه المِنن تعتبر نفسها لا شيء، بل أكثر وأكثر تواضعًا ممّا كانت قبلاً، لأنّها ترى ان الأمر هبة وانها لا تستطيع ان تنقص منه أو تزيد عليه شيئًا، بل تزداد حبًّا ورغبة في خدمة ربّ قدير جدًّا يستطيع ان يصنع ما نعجز عن فهمه على الأرض؛ فيصحّ القول: مهما أوتي الإنسان من علم تفوت إدراكه أشياء.

فليكن مباركًا إلى أبد الآبدين، آمين. من يؤتي هذه الأشياء.

– ٥ –

١. إنّ حلول الروح الباطنية هذه يصعب الحديث عليها أيّ صعوبة، وبصورة أَوْلى إفهامها، وتزداد الصعوبة بمقدار ما تمرّ بسرعة؛ فإذا لم تساعد الطاعة، على ذلك تكون الإصابة في الكلام من حسن الحظ، خصوصًا في مواضيع شاقة هذه المشقّة. على أني أَكترث قليلاً إذا أهذيت، لأنّ هذا التقرير موجّه إلى من قد يكون سمع منّي حماقات أكبر من هذه.

وإنّي أتوسّل إلى حضرتك أن تقتنع بأن نيّتي التفكير بأن كلّ ما قد أقول مصيب، فأنا نفسي قد أعجز عن فهمه؛ غير ان ما يمكّنني تأكيده، إنّني لن أتحدّث عن شيء لم أخبره أحيانًا، بل وغالبًا. فإذا كان صالحًا أو سيّئًا، فحضرتك أنعم فيه النظر وأبلغني رأيك.

٢. يبدو لي أن حضرتك ستُسَرّ بأن أباشر منذ البداية بتناول أشياء فائقة الطبيعة لأنّ التقوى، والحنان، والدموع، والتأمّلات التي يمكننا اكتسابها في هذه الدنيا بمساعدة الربّ معروف أمرها.

٣. ان أوّل تأمّل فائق الطبيعة فيما يظهر لي (أني ما لا أستطيع اكتسابه بمسعاي واهتمامي ولو بذلت جهدًا كبيرًا، مع ان الإستعداد له واجب ويساعد كثيرًا)، هو **الاختلاء الباطني** الذي تشعر به النفس وكأن لها حواس أخرى كما لدينا هنا حواس خارجية، فتُرى، وقد انطوت على ذاتها، وكأنها تريد أن تبتعد عن الصخب الخارجي. وهكذا فإنّها تجرّ أحيانًا وراءَها هذه الحواس الخارجية، فتداخلها رغبة في اغماض العينين وفي أن لا تسمع، ولا ترى، أو تفهم إلاَّ ما تنشغل به النفس إذ ذاك، وهو أن تستطيع التداول مع الله على انفراد. وهنا لا تتعطّل إيّة حاسّة ولا أيّ قوّة نفسية، فكلّ شيء كامل يقوامه، لكنّه جاهز لينشغل بالله. هذا يسهل فهمه على من أعْطاه ربّنا هذا الفضل؛ أمّا مَن لم يعطِه إيّاه فيلزمه، أقلّه، كلام كثير ومقارنات عديدة.

٤. ينجم عن هذا الاختلاء أحيانًا **سكينة وسلام باطني** لذيذان فتكون النفس وكأنّها لا يقوتها شيء، حتى أن التكلّم يتعبها، أعني الصلاة اللفظية والتأمّل. لا تودّ إلاَّ أن تحبَّ. ويدوم ذلك برهة بل ربّما برهات.

٥. ينتج عن هذا التأمّل عادة **نعاس** يدعى نعاس قوى النفس، فلا تكون مستغرقة ولا معطّلة تمامًا بحيث يمكن أن يدعى انخطافًا. ومع ان هذا النعاس ليس اتحادًا كاملاً، فإن النفس تدرك حينًا، بل أحيانًا كثيرة، ان الإرادة وحدها متّحدة، وتدرك ذلك بوضوح كبير، بل أقول، بوضوح، كما يبدو. فالنفس وهي منشغلة كلّها بالله، ترى ان القدرة تنقصها لتكون مع شيء آخر أو الإهتمام به. أمّا قوّتاها الأخريان محرّتان في للإهتمام بشؤون الله وأعمال خدمته. في النتيجة، إنّ مرتا ومريم تسيران معًا. وقد سألت الأب فرنثيسكو إذا كان هذا خدعة، لأنّه أقنعني بالبلبلة، فأجابني انه يحدث غالبًا.

٦. عندما يتمّ الاتحاد بواسطة قوى النفس جميعها يكون الأمر مختلفًا جدًّا، لأنّ أيًّا من القوى لا يمكنها أن تعمل. فالعقل يكون كأنّه ذاهل؛ والإرادة تحبّ أكثر ممّا تعي، لكنّها لا تعي هل تحبّ، ولا ما تعمل بحيث تستطيع الإفصاح عنه؛ والذاكرة، برأيي، لا وجود لها، ولا للكفر، وحتى الحواسّ لا تكون إذ ذاك واعية، بل كأنّها فُقِدَت لتنصرف النفس، في اعتقادي، بطريقة أفضل إلى ما تستمتع به، في تلك اللحظات القصيرة التي تُفقَد فيها. فالرؤيا تمرّ سريعًا. ويظهر الخير الكبير الذي يحصل للنفس من تلك المِنّة في الغنى الذي كسبته من تواضع، وفضائل أخرى، ورغبات؛ غير انها لا تستطيع التعبير عنه؛ فرغم ان النفس تكشف ذاتها، فلا تعرف كيف تفهم ذلك ولا كيف تفصح عنه. وفي اعتقادي، إذا كانت هذه المنّة صحيحة، فإنّها أكبر منّة بمنحها ربّنا في هذا الطريق الروحي، أو أقلّه من أكبر المِنن.

٧. **الانخطافات وتوقّف الحواس**، في رأيي، شيء واحد؛ لكنّني تعوّدت أن أستخدم كلمة "توقّف" بدل إنخطاف لأن هذه تحدث رعبًا، وفي الحقيقة، ان هذا الاتحاد الذي تحدّثت عنه يمكن أن يدعى أيضًا توقّفًا.

أمّا الفرق بين الانخطاف والاتحاد فهو هذا: ان الانخطاف يدوم وقتصا أطول ويكون محسوسًا أكثر في الظاهر لأنّ النفس يروح ويتقطّع بحيث العجز المنخطف عن الكلام، وعن فتح عينيه. ومع ان هذه الظاهرة تتمّ في الاتحاد، إلاّ انها أشدّ عنفًا في الانخطاف؛ فأنا لا أعرف أين تذهب الحرارة الطبيعية. فحين يكون الانخطاف قويًّا – وفي أنواع التأمّل هذه جميعها هناك ما هو أكثر أو أقلّ قوّة –، إذن حين يكون قويًّا، كما قلت، تَجْلَدْ اليدان وتتصلّبان كأنهما عَصَوان؛ وإذا أخذ الانخطاف بالجسم واقفًا أو جاثيًا، يبقى على حاله. وتنشغل النفس بالتلذّذ بما يقدّم لها الربّ، فكأنّها تنسى أن تحيي الجسد فتتركه معطّلاً؛ وإذا طال ذلك، فإنّ الأعصاب تصيبها معاناة.

٨. إخال الربّ في هذه الحال يريد أن تعي النفس أكثر ممّا تتلذّذ به في الاتحاد، ولذلك تُكشَف لها عادةً في لحظةِ الجذبِ أمورٌ عن جلاله؛ والمفاعيل التي تبقى في النفس كبيرة فتنسى ذاتها لشدّة رغبتها في أن يُعرَف ويمجَّد هذا الإله والربّ العظيم. وفي رأيي، إذا كان الانخطاف واردًا من الله فلا يمكن للنفس إلاّ أن تعرف معرفة عميقة ان لم يكن لها دور في الأمر، وتعرف بؤسها وعقوقها لأنّها لم تخدم مَن بمحض جودته نفحها بمنّة كبيرة كهذه. فالشعور والحلاوة اللذان تحسّ بهما يفوقان كلّ حدّ بالمقارنة بكلّ أشياء الأرض، بحيث إذا لم تفت ذاكرتهما، يلازمها دائمًا فرقٌ من مِتَع الدنيا؛ وعليه يؤول بها الأمر إلى احتقار جميع أشياء العالم.

٩. الفرق بين الانخطاف والانجذاب ان الانخطاف يتمّ فيه الموت عن الأشياء الخارجيّة شيئًا فشيئًا، وتتعطّل الحواس، وتحيا النفس في الله. أمّا الإنجذاب فيأتي بعلامة واحدة يبثّها الله في عمق أعماق النفس وبسرعة كأنّها تجذبها إلى أعلى ما فيها فتخال ذاتها تُنتَزع من الجسد؛ وعليه تحتاج في البدء إلى شجاعة لتستسلم بين ذراعي الربَّ ليحملها إلى حيثُ يشاء. فإلى أن يضعها جلاله في سلام حيث يريد أن يحملها (أقول مجملها لتفهم أمورًا سامية)، تحتاج يقينًا في البدء إلى أن تكون مصمّمة تمامًا على الموت من أجله؛ لأنّ النفس المسكينة لا تعرف ما سيكون من أمرها؛ أقول: في البدء.

١٠. أمّا الفضائل الناجمة عن هذه الحال فتكون، في اعتقادي، أقوى منها في تلك، لأن [النفس] تتمنّى ويُقدّر لها أن تفهم أكثر من قبل قدرة هذا الإله العظيم لتخافه وتحبّه، لأنّه يجذب النفس كسيّد لها،من دون أن يكون في يدنا حيلة. وتبقى النفس في ندم كبير لأنّها أهانته، وفي جزع من انها تجرّأت وأهانت هذا الجلال العظيم، ويأخذها شوق لأن لا يهينه أحد من بعد بل أن يمجّده الجميع. في اعتقادي، من هنا تأتي هذه الأشواق العظمى إلى خلاص النفوس إلى أن يكون لها سهم في ذلك، وإلى أن يُمجَّد هذا الإله التمجيد الذي يستحقّ.

١١. **طيران الروح** شيء لا أعرف كيف أدعوه؛ انه يصعد من عمق أعماق النفس. لا أتذكّر إلاّ هذا التشبيه الذي استعملته، كما تعرف حضرتك، حيث عرضت مفصّلة طرائق التأمّل هذه وغيرها؛ غير ان ذاكرتي ضعيفة فأنسى سريعًا. يبدو لي ان النفس والروح لا بدّ أن يكون شيئًا واحدًا؛ انهما كنار مضطرمة وكانت مستعدّة للاشتعال. حال النفس في استعدادها إزاء الله يشبه النار؛ إذا اتّقدت سريعًا ترسل لهبًا يرتفع عاليًا، ولو انه نار كالنار التي في اسفل؛ وهذا اللهب لا يكفّ عن أن يكون نارًا لأنّه ارتفع. كذلك النفس هنا؛ يبدو انها تطلق من ذاتها شيئًا سريعًا جدًّا وبالغ اللطف يرتفع إلى القسم الأعلى ويمضي إلى حيث يريد الربّ؛ لا يمكن زيادة الشرح؛ كأنّه طيران، وأنا لا أعرف شيئًا آخر أشبهه به. أعرف انه يُفهم واضحًا جدًّا ولا يمكن عرقلته.

١٢. كأنّ ذلك العصفور الصغير، عصفور الروح، افلت من شقاء هذا الجسد ومن سجن هذا الجسم، فيمكنه إذن أن ينشغل بما يعطيه الربّ. انه لشيء كثير اللطف ثمين جدًّا، كما تفهم النفس، فلا تظنّ الوهم يخالطه، أو يخالط أيّة ظاهرة مماثلة حين تحصل. وكانت المخاوف تأتي لاحقًا بسبب حقارة من تتلقى [هذه المنّة]، فترى في كل شيء سببًا للخشية، رغم يقين وثقة في قرارة نفسها يتيحان لها العيش ولا يحولان دون اتخاذها التدابير لئلا تنخدع.

١٣. أدعو اندفاعاتٍ رغبةً شديدة تأخذ أحيانًا بالنفس، وقد يأخذ بها كثيرًا، من دون أن يكون قد سبق ذلك تأمّل، بل قد يفاجئها تذكّر بأنها غائبة، عن الله، أو قد تسمع كلمة ما، فيحدث ذلك. وهذا التذكّر هو القوّة والتأثير أحيانًا بحيث ان النفس، في لحظة، تبدو كأنّها تهذي، كمثل من يسمع فجأة خبرًا مؤلمًا جدًّا لم يكن يعرفه، أو يأخذ به ذعر راعب فكأنّه يعطّل سياق أفكاره التي قد تعزّيه فيبقى كأنّه مشدوه. هذا ما يحدث هنا، عدا ان العناء ناجم عن سبب سامٍ جدًّا بحيث تقتنع النفس بأن من مصلحتها الموت من أجله.

١٤. يحدث ذلك وكأنّ كلّ ما تدركه النفس عندئذٍ يزيد من عنائها، وان الربّ لا يريدها ان تخدم بكلّ كيانها شيئًا آخر، أو أن تتذكّر أنّ الله يريدها أن تحيا؛ بل تخال نفسها في وحدة هائلة، وفي خلاء مطلق لا يوصف. فالعالم بكلّ ما فيه يتعبها ولا خليقة تؤنسها، ولا رغبة للنفس إلاَّ في الخالق وترى ذلك مستحيلاً إن لم تمت. وبما انها لن تقتل ذاتها، فإنّها تموت من شوق إلى الموت. بحيث تكون حقًّا في حظر الموت، وترى معلّقة بين السماء والأرض فلا تدري ما سيحلّ بها. وشيئًا فشيئًا يعطيها الله لمحة عنه لترى ما تخسره، بطريقة عجيبة غريبة يستحيل وصفها، ذلك ان لا شيء على الأرض، أقلّه من كل ما أعرف، يوازي [هذا العناء]. فلا يبقى لليدين طاقة على الكتابة وتتألمان أشدّ الألم.

١٥. لا تشعر بشيء من كلّ هذا إلاَّ بعد زوال ذلك الاندفاع. يكفيها ان تتحمّل ما يحصل في باطنها، ولا أظنّها تشعر باضطرابات خطيرة، وهي تملك السيطرة على حواسّها، فتستطيع أن تسمع بل أن تنظر أيضًا؛ أمّا أن تمشي فلا، لأنّ صدمة الحبّ الشديدة تستقطها أرضًا. ولئن تموت [النفس] توقًا لنوالها [هذه المنّة] فلن يجديها توقها نفعًا إلاَّ أن ينفحها بها الله. انها تحدث في النفس مفاعيل جليلة القدر جدًّا ومكاسب بعض العلماء يشيرون إلى واحد، وآخرون إلى آخر؛ لكن لا أحد يشجب. لقد كتب لي المعلّم أفيلا فقال انه أمر صالح، وهذا ما يقول به الجميع. والنفس نفهم جيّدًا انه منّة عظيمة من الله. لو يتراتر حصولها، لتَدوم الحياة قليلاً.

١٦. الاندفاع العادي هو ان هذه الرغبة في خدمة الله مصحوبًا بحنان كبير وشوق حتى الدمع للخروج من هذا المنفى. لكن بما ان للنفس الحريّة كي تعتبر ان الله يريدها ان تحيا؛ فإن ذلك يعزّيها، فتقدم له حياتها، وتتوسّل إليه أن لا تكون وسيلة إلاَّ لمجده. وبهذا تصمد.

١٧. وطريقة أخرى عادية جدًّا للتأمّل هي نوع من **الجرح**، كأنّ سهمًا يُغرزُ في قلبها أو فيها، هي، فيحدث ألمًا شديدًا يدفع إلى الأنين، وبالغ العذوبة، نتمنّى أن لا تقوتها أبدًا. هذا الألم ليس حسّيًا، وليس جرحًا ماديًا، بل يحدث في باطن النفس دون أن يظهر ألم جسدي؛ ولأنّه لا يمكن أن يشرح إلاَّ بالتشابيه، فتستخدم هذه؛ ولئن تكن غليظة فانها تؤدّي الفرض، وأنا لا أستطيع الافصاح عنها بطريقة أخرى. وعليه، فإنّ هذه الأمور لا يمكن شرحها كتابة أو شفهيًا لأنّه يستحيل فهمها على مَنْ لم يختبرها. أعني بهذا الحدّ الذي يبلغه هذا الألم،

لأنّ آلام الروح تختلف كليًّا عن الآلام في هذه الفانية. من هنا استنتج كم ان النفوس تتألم في الجحيم وفي المطهر أكثر ممّا يمكننا أن نتصوّره استنادًا إلى هذه العذابات الجسدية على الأرض.

١٨. يُخال أحيانًا أخرى ان جرح الحبّ هذا ينفجر من عمق أعماق النفس؛ والمفاعيل كبيرة؛ وعندما لا يمنح الربّ هذه المنّة. فمن العبث الحصول عليها مهما حاولت، كما من العبث رفضها. انها رغبات حارة في الله ولطيفة جدًّا يتسحيل وصفها. ولأنّ النفس تجد ذاتها مقيّدة لتستمتع بالله كما تتمنّى، يأخذ بها كره للجسد، وترى كأنّه جدار عالٍ يعيق نفسها عن الاستمتاع بما تعتبر انه تدركه حينذاك، والذي تستمتع به في ذاتها بدون مانع من الجسد. عندئذٍ يتصوّر لها الشرّ الفظيع الذي سبّبته لنا خطيئة آدم بحرماننا من هذه الحرية.

١٩. لقد حصل [لي] هذا التأمّل قبل الانخطافات الاندفاعات الكبرى التي تحدّثت عنها. وغاب عن بالي القول أنّ تلك الاندفاعات العنيفة لا تتلاشى إلاّ بانخطاف وفضل كبير من الربّ يعزّي بهما النفس ويشجّعها فتحيا من أجله.

٢٠. كلّ ما قلته لا يمكن أن يكون توهّمًا لعدّة أسباب قد يطول شرحها. أمّا أن يكون صالحًا أم لا، فالربّ يعرف ذلك. وأمّا المفاعيل وكيف ان ذلك يوفّر للنفس فوائد فلا يمكن، في رأيي نتبيّنها.

٢١. أرى بوضوح ان الأقانيم الثلاثة متميّزون، كما كنت أرى أمس حضرتك تتحدّث مع الرئيس الاقليمي، غير اني لا أرى شيئًا، ولا أسمع شيئًا، كما قد قلت لحضرتك؛ لكنّي على يقين عجيب من ذلك الحضور ولو لم تدركه عينا النفس، فإذا انتقى، يرى انه غاب. أمّا كيف يحصل ذلك، فلا أدري؛ لكنّي أعرف جيّدًا انه ليس تخيّلاً؛ فحتى لو أجهدت نفسي لأعود فأتمثّله لا أستطيع رغم انّي حاولت. وهذا شأن كلّ ما قلته هنا بقدر ما أفهم. ولأنّ الأمر يحصل منذ سنوات عديدة، فقد استطعت أن أروي بهذا اليقين ما قد رأيت.

٢٢. هذه هي الحقيقة؛ ولاحظ حضرتك ان باستطاعتي التأكيد انني أعرف، كما يبدو لي، الأقنوم الذي يتكلّم دائمًا؛ أمّا الاقنومان الآخران، فلا أستطيع الجزم بشأنهما. لكنّي أعرف جيّدًا ان واحد من الاثنين لم يتكلّم أبدًا. وما فهمت سبب ذلك قطّ، ولا أجهد نفسي في أن أطلب من الله أكثر ممّا يريد أن يعطيني، لأني أتصوّر حالاً الشيطان قد يخدعني؛ ولا أطلب ذلك الآن بسبب ذلك الخوف.

٢٣. أمّا الاقنوم الأول، فيبدو لي انه [كلّمني] ذات مرّة؛ غير اني لا أتذكّر الآن ذلك جيّدًا، ولا موضوع الكلام، فلا أجرؤ على تأكيد الأمر. كلّ شيء مكتوب في الموضع الذي تعرفه حضرتك، وبتفصيل أو في ممّا هو هنا، ولو اني لست أدري إذا التعابير هي عينها. ورغم ان هذه الأقانيم الثلاثة تظهر ذاتها متميّزة، بطريقة عجيبة، فإنّ النفس تدرك انهم إله واحد. لا أذكر أنّي تصوّرتُه ربّنا يتكلّم، إلاّ أن يكون ناسوته المتكلّم، وأثبت ذلك بأني أستطيع التأكيد ان الأمر لم يكن توهّمًا.

٢٤. ما تقوله حضرتك بشأن الماء لا أعرفه، كما اني ما فهمت أين مكان الفردوس الأرضي. لقد قلت سابقًا ان ما يفهمينه الربّ لا أستطيع ان أفضه، أفهمه لأنني لا أستطيع غير ذلك. أمّا أن أطلب من جلاله أن يتيح لي فهم شيء ما، فلم أفعل ذلك أبدًا، لأنّه قد يصوَّر لي حالاً انني كنت أتخيّله وأنّ الشيطان عازم على مخادعتي. وما حثّني الفضول قطّ، والمجد لله، لأشتهي معرفة أشياء، ولا يهمني إطلاقًا ان ازداد معرفة. لقد كلّفني ما

فهمّته مشقّة عظمى، وفهمته من دون إرادة منّي كما قلت، ولو اني أظنّه وسيلة اعتمدها الربّ لخلاصي حين رآني حقيرة هذه الحقارة؛ فالصّالحون لا يحتاجون إلى كلّ هذا ليخدموا جلاله.

٢٥. أتذكّر نوعًا آخر من التأمّل يسبق الأول الذي تحدثت عنه، وهو **حضور** الله. هذا الحضور ليس رؤيا في أيّ حال، بل يبدو (أقلّه عندما لا توجد يبوسات) ان كلَّ شخص حين يريد أن يتّكل على جلاله، ولو انه يصلّي صلاة لفظية يجده.

ألا رضيَ الله أن لا أخسر، أنا، بذنبي، مِننًا وفيرة كهذه، ولْيَرحَمْني.

– ٦ –

١. آه، من تراه يستطيع أن يوضح لحضرتك السكينة والطمأنينة اللتين تنعم بهما نفسي ! فبفضل يقينها الراسخ بأنّها ستتنعّم بالله، يخيّل إليها انه سلّمها منذ الآن ذاته ولو دون المتعة؛ فمثله مثل مَن أعطى آخر ريعًا كبيرًا بصكّ ثابتٍ ليتنعّم به بعد مضيّ زمن ويجني ثماره؛ غير أنه، حتى ذلك الوقت، لا يتنعّم إلاَّ بصكّ الملكية المعطى له الذي لا يفيد بأنّه سيتمتّع بهذا الريّع. ونفسي في امتنانها الدائم، لا تودّ الاستمتاع بالريع، لأنّها تحسب أنّها ما استحقّته، بل تريد أن تخدم ولو كلّفتها الخدمة معاناة شديدة، ورغم انها أحيانًا تخال ذلك الاحتمال حتى انتهاء العالم قليلاً لخدمة من أعطاها تلك الملكيّة. فهي، في الحقيقة، من جهّة، ليست خاضعة لشقاوات العالم كعادتها؛ فلئن نزل بها مزيد من الألم فكأنّه يلامس ثيابها فقط، أمّا النفس فكأنّها معتصمة في قلعة، فلا تفقد السلام رغم ان هذا الأمان لا ينفي عنها خوفًا كبيرًا من إهانة الله، ولا يزيل كلَّ ما قد يحول دون خدمته؛ بل انها تعيش في مزيد من الحذر، لكنّها تنسى تمامًا مصلحتها الخاصّة فتحسب انها فقدت جزئيًا كيانها لشدّة نسيانها ذاتها. في هذه الحال كلّ ما تعمله فإنّما تعمله إكرامًا لله، وسعيًا لإتمام إرادته، وتمجيدًا له.

٢. أمّ والحال هذه، فبشأن صحّتها وجسدها يبدو انها تزداد عنايتها ويقلّ تقشّفها في الطعام وفي ممارسة الإماتة، ولو لم تنقص رغبائها السابقة فيها، بل يبدو ان كلَّ ذلك هدفه ان تقوم بمزيد خدمة الله في أمور أخرى، فتراها غالبًا تقدّم له الاعتناء بجسدها كتضحية كبيرة، ويؤلمها كثيرًا ذلك الاعتناء؛ وتمارس أحيانًا بعض الإماتات، لكنّها تتبيّن انها لا تستطيع ممارستها دون أن تضرّ بصحّتها فتستحضر ما يأمرها به الرؤساء. وفي هذا الأمر وفي رغبتها في الحرص على صحّتها بتداخل أيضًا كثيرًا حبّ الذات. ومع هذا، ففي اعتقادي انه ليسرّني كثيرًا، بل كان يسرّني ان أستطيع الإكثار من التوبة، لأنني إخالني أقلّه أفعل شيئًا، وأعطي مثلاً صالحًا وأعيش حرّة من العناء الذي يسببه عدم خدمتي الله في شيء. فتنظر سيادتك خير ما يمكن صنعه في هذا الموضوع.

٣. أمّا الرؤى الخياليّة فقد انقطعت. لكن يبدو ان الرؤيا العقلية هذه للأقانيم الثلاثة وللناسوت مستمرّة وهي، في رأيي، شيء أسمى كثيرًا من تلك. والآن أدرك، كما يبدو لي، ان الرؤى التي حصلت لي كانت من الله لأنّها تؤهّل النفس للحالة الموجودة فيها الآن، فلأنّها بائسة أيّ بؤس وقليلة القوّة كان الله يقودها كما يرى ضروريًا توجيهها؛ ومن الواجب، في رأيي، تقدير هذه الإفضال كثيرًا عندما تكون صادرة عن الله.

٤. أمّا الخطابات الباطنيّة فلم تنقطع. فعند الحاجة، يلقي إليَّ بعض تنبيهات؛ ولولا ذلك، لكانت حصلت حماقة ثقيلة مؤخَّرًا في پالنثيا ولو لم تبلغ درجة الخطيئة.

٥. وأمّا الأفعال والرغبات فتبدو خلوًا من قوّتها السابقة المعتادة. ورغم انها كبيرة [هذه الأفعال والرغبات]، فتفوقها قوّةً بدرجة كبيرة عزيمتُها على أن تتمّ إرادة الله وما يؤول إلى زيادة مجدّة؛ ذلك ان النفس تدرك جيّدًا ان جلاله يعرف ما يلائم هذه الغاية، وهي مجرّدة تمامًا من مصلحتها الخاصّة، فتزول سريعًا تلك الرغبات والأفعال وتنعدم، برأيي، قوّتها. من هنا ينجم الخوف الذي ينتابني أحيانًا، ولو لم يصحبه قلق وغمّ كما في السابق، من أن تكون نفسي مخبولة وأنا عاجزة عن فعل شيء ما، لأنني لا أستطيع أفعال التوبة. ان الرغبة في التألّم، وفي الشهادة، وفي رؤية الله، لا تنطوي على قوّة، ولا أستطيع فعلها عادة. كأنني أحيا فقط لآكل، ولأنام، وكي لا أعاني من شيء، وحتى هذا لا يسبّب لي عناء؛ غير انني، أحيانًا، كما قلت، أخشى ان يكون ذلك خدعة؛ لكنني لا أستطيع أن أعتقد ذلك، لأنني مقتنعة من انه لا يسيطر عليَّ بقوّة تعلّق بأيّة خليقة، ولا يمجد السماء كلّ مجدها، بل حبُّ هذا الإله، والرغبة في أن لا يفتر هذا الحبّ، فإني، على العكس، أراه ينمو تشتدّ الرغبة في ان يخدمه الجميع.

٦. إضافة إلى ذلك يذهلني أمر وهو ان تلك المشاعر المفرطة والباطنية التي كانت تؤرقني عادة حين أرى النفوس تهلك ولدى تفكيري في ما إذا كنت أفعل ما يهين الله، لم أعد أحسّ بها الآن بهذا الشكل، رغم اعتقادي ان رغبتي في أن لا يُهان لا تقلّ الآن عمّا كانت عليه حينذاك.

٧. ولاحظ، يا سيّدي، انني في هذه الأمور جميعها، اليوم مثلي في الماضي، لا أستطيع أن أفعل المزيد، وليس في يدي حيلة؛ لكنت أستطيع مزيدًا من الخدمة لو لم أكن حقيرة. غير اني أقول: لو حاولت الآن بجهد جهيد ان أشتهي الموت، لما استطعت، ولما قدرت أن أعمل الأفعال التي كنت أحقّقها، أو أن أقاسي العذابات بسبب الإهانات التي تلحق بالله، أو ان تعتريني المخاوف المريعة التي لازمتني سنين طويلة من تصوّري نفسي مخدوعة؛ وعليه لا أراني بعد بحاجة إلى التداول مع العلماء، أو أن أفصح لأحد بأمر ما، بل أن أرضي ضميري بأني أسير في الطريق القويم، واني أستطيع أن أفعل شيئًا. وقد تداولت هذا مع بعض من تباحثت معهم في الأمور الأخرى وهم الأب دومنغو بانييث، والمعلّم مِدينا وبعض الآباء اليسوعيين. وسألتزم بما تقوله لي، سيّدي، نظرًا إلى عظم ثقتي بك. فأنظر في الأمر مليًّا، حبًّا بالله.

وما حُرِمْتُ من أن أفهم أن بعض النفوس المقرَّبة منّي والتي ماتت صارت في السماء، بينَما لم أعرف ذلك عن نفوس أخرى.

٨. الوحدة التي تدفع إلى التفكير، لا يمكن إعطاء ذلك المعنى إلى "الذي رضع ثدي أمّي". العودة إلى مصر...

٩. ان السلام الباطني الذي لا تقوى على نزعه المسَرّات والشّجون بقوّتها الهزيلة لتعطّل دوامه... هو حضور الأقانيم الثلاثة هذا الذي لا يمكن أن يشوبه شكّ، فيُرى واضحًا انه يتمّ اختبار ما يقوله القديس يوحنا

بأنّهم "ويجعلون لهم في النفس مقامًا"، وليس ذلك بالنعمة فقط، بل يريدون ان يُشعروا النفس بهذا الحضور الذي يؤتي كثيرًا من الخيور التي لا توصف ومنها خصوصًا عدم الحاجة للبحث عن اعتبارات لنعرف ان الله هناك.

وهذه الحال تكاد تكون مألوفة، إلاَّ حين يشتدّ ضغط المرض، ذلك ان الله قد يريد أن يتألم أحدنا دون أن يجدَ تعزية باطنية، لكن الإرادة لا تميل أبدًا، ولو بحركة أولى، عن أن تتمَّ فيها إرادة الله.

ان استسلامها هذا لمن القوّة بحيث لا تريد الموت أو الحياة إلاَّ للحظة قصيرة حين تشتهي أن ترى الله؛ غير انه يتمثّل لها حالاً بقوّة كبيرة حضور هؤلاء الأقانيم الثلاثة، فيكون ذلك دواءً للألم الذي يحدثه هذا الغياب، وتبقى الرغبة في العيش، إذا أراد، هو، لأزيد من خدمتي له؛ وإذا استطعت الإسهام في أن تزيدَ من حبّها إيَّاه وتمجيده بواسطتي نفس واحدة، ولو لوقت قصير، أعتبر ذلك أكثر أهمية من وجودي في السماء.

تريزا يسوع

– ٧ –

في السابع عشر من تشرين الثاني/نوفمبر، ثامن يوم عيد القديس مرتينوس سنة ١٥٦٩، رأيت، بشأن ما أعرف، أن قد مضت ١٢ سنة. فلبلوغ ٣٣ سنة التي عاشها الربّ، ما زال أمامي ٢١ سنة.

هذا ما حصل في طيطلة، في دير الكرمل المشيَّد على اسم القديس يوسف المجيد.

أنا لكَ وأنتَ لي.

حياة ٣٣.

اثنتا عشرة لي، لكنّي لم أَعِشها بإرادتي.

– ٨ –

حين كنت في دير طيطلة، وإذ نصحني بعضهم بأن لا أدفن فيه إلاَّ من كان نبيلاً، قال لي الربّ: "ستخطئين خطأ فادحًا، يا ابنتي، إذا تقيّدتِ بشرائع العالم. ضعيني نِصْبَ عينَيك فقيرًا يحتقره العالم. أَيُظَنّ أن عظماء الدنيا سيكونون عظماء أمامي ؟ وأنتنَّ، أيجب أن تقدَّرن لأصلكن الكريم أو لفضائلكن ؟".

(هذا ما أوحى إليّ به حول نصيحة بعضهم بأن لا أدفن في طيطلة من ليس نبيلاً).

– ٩ –

بعد التناول، وفي اليوم الثاني من الصوم، في دير القديس يوسف في مالاغون، ظهر لي ربّنا يسوع المسيح في رؤيا خيالية، وفيما أنا أنظر إليه، رأيت على رأسه، بدل إكليل الشوك، إكليلاً فائق الألق حيث تركت الأشواك جراحًا.

وبما انني كثيرة التعبّد لمشهد الألم هذا، غمرتني تهزية ورحت أفكّر في شدّة العذاب الذي سبّبته له الجراحات الكثيرة وأتألّم لذلك. فقال لي الربّ بأن لا أشفق عليه بسبب تلك الجراح بل من أجل الجراحات الكثيرة التي يسبّبونها له حاليًا. فسألته عمّا أستطيع فعله لمعالجة الأمر لأنني مصمّمة على فعل أيّ شيء. فقال لي أنّ الوقت الآن ليس لأخذ الراحة، بل عليَّ أن أعجّل في إنشاء هذه البيوت، فمع النفوس التي تسكنها يجد هو، راحته؛ وقال لي ان أقبل كلّ البيوت التي تقدّم لي، لأن نفوسًا كثيرة لا تخدمه لافتقارها إلى مكان تخدمه فيه؛ وطلب إليَّ ان تكون البيوت التي أنشئها في قرى صغيرة مثل هذا البيت، ففيها يمكنهنَّ أن يكسبنَ استحقاقات توازي تلك التي تكتسب هناك، إذا رغبنَ أن يعملنَ ما يُعمل في تلك البيوت؛ وان اجتهد في أن تكون جميعها تحت سلطة رئيٍ واحد؛ وان أكون شديدة الحرص على ان لا يؤدّي الاهتمام بإعالة الجسد إلى فقدان السلام الباطني، فانه، هو، سيساعدنا كي لا ينقصنا شيءٌ أبدًا، وان تعني عناية خاصّة بالمرضى؛ فالرئيسة التي لا تسدّ حاجات المريضات وترفّه عنهنَّ تكون كمثل أصدقاء أيوب؛ ففيما الله يرسل البليّة لخير نفوسهنّ، ترى الرئيسات يعرّضهنَّ لفقدان الصبر؛ وطلب إليَّ أن أكتب قصّة تأسيس هذه الأديار. فكّرت حينئذٍ كيف أنني لم أجد أبدًا شيئًا جديرًا بأن يكتب في قصّة تأسيس دير مِدينا. فقال لي وما تراني أريد أن أعرف أكثر من ان ذلك التأسيس كان عجائبيًا. وإنّما أراد أن يقول انه، وهو يعمله وحيداً، واذ كان يبدو مجهول المصير، صمّمت على وضعه موضع التنفيذ.

– ١٠ –

فيما أفكّر كيف أنَّني ما كنت أفهم شيئًا من تنبيه كان الربّ قد أعطانيه كي أسديه، رغم توسّلاتي واعتقادي بأن الشيطان وراءَه، قال لي: ليس ذلك من الشيطان، وهو يُخْطِرني في الوقت المناسب.

– ١١ –

وفيما كنت أفكّر ذات يوم لكم يعيش المرء نقيًّا وهو يعبد عن الأعمال، وكيف أنيّ عندما أكون منصرفة إليها تكون حياتي مضطربة ومليئة بالأخطاء، سمعت هذا القول: "لا غنى عن الأمر، يا ابنتي، اعتمدي في كلّ شيء صفاء النيّة والتجرّد، وانظري إليَّ، كي يأتي ما تعملين متوافقًا مع ما عملت".

– ١٢ –

فيما كنت أفكّر في ما عساه يكون السبب في عدم حصول الخطافات علانية لي أبدًا تقريبًا، سمعت هذا القول: "ليس ذلك ملائمًا الآن؛ ان لك من الصدقية ما يكفي كما اقصد؛ فلنرَ ضعف الخبثاء".

– ١٣ –

وفيما أنا ذات يوم مغمومة جدًّا بسبب إصلاح الرهبانية، قال لي الربّ: "افعلي ما بوسعك ودعيني أتصرّف، ولا تقلقي من شيء؛ استمتعي بالخير الذي أُعطي لكِ، فانه خير كبير؛ ان أبي يتلذّذ معك والروح القدس يحبّك".

– ١٤ –

قال لي الربّ ذات يوم: "تشتهين المشقّات دائمًا وترفضينها من جهّة أخرى: اني أرتّب الأمور وفقًا لما أعرف عن إرادتك وليس وفقًا لأحاسيسك وضعفك. تشجّعي، فأنت ترين كم أساعدك. لقد اردتك أن تكسبي، أنتِ، هذا الاكليل. سترين رهبانية العذراء تتقدّم كثيرًا في حياتك".

لقد سمعت هذا من الربّ في منتصف شهر شباط/فبراير، سنة ١٥٧١.

– ١٥ –

١. طيلة أمسِ وجدتني في وحدة ضاغطة؛ فما خلا لحظة التناول، لم يفعل فيَّ أيَّ فعل على كَونه عيد القيامة. مساء أمي، إذ كنت مع الجميع، أَنشدنا أغنية فحواها ثقل احتمال الحياة من دون الله. ولما كنت أعاني عذابًا، فقد أثّرت الأغنية فيّ أيَّ تأثير فبدأت يداي تتجذّران، وما نفعت مقاومتي، بل مكثني حين أخرج من ذاتي من الفرح في الانخطافات، كذلك ترى النفس معلّقة في الألم الشديد، فتخرج عن طورها، وحتى اليوم لم أفهم الأمر. منذ عدّة أيام، ما كنت احسب ان اندفاعات قوّية بهذه الشدّة تأخذ بي كالسابق، والآن تخال لي ان السبب هو هذا الذي ذكرت، ولا أدري إذا ذلك ممكن؛ ففي السابق، ما كنت أستطيع أن أبعد الألم عنّي، وبما انّه لا يطاق، وأنا كنت أمتلك حواسي، كان ذلك يدفعني إلى إطلاق صيحات شديدة بدون أن أتمكّن من تلافيها؛ أمّا الآن، وقد اشتدّ هذا الألم؛ فقد بلغ حدَّ هذا الاختراق، وعلى فهمي فهمًا أفضل ذاك الذي أصاب العذراء سيّدتنا، فأنا، حتّى الآن، لم أفهم ما هو الاختراق. فقد تحطّم من جرّائه جسدي أيّ تحطّم حين انني أعاني من ذلك، اليوم، وأنا أكتب ما أكتب، فكأن يديَّ مقطّعتان، متألمتان.

٢. عندما تلتقيني حضرتك ستقول لي إذا كان هذا الذهول نتيجة الألم وأشعر به كما هو، أم انني مخدوعة.

٣. لقد لازمني هذا العناء حتى هذا الصباح؛ وفيما كنت غارقة في التأمّل أُخِذت بانخطاف فخلت أنّ ربّنا رفع روحي إلى قرب أبيه وقال له: "هذه التي أعطيتنيها أعطيها لكَ"، وبدا لي انه يدنيني منه. ليس هذا من نسج الخيال، بل انه يقين ثابت، ولطافة روحية بالغة يستحيل وصفها وصفًا كاملاً. وقال لي بعض كلمات لا أتذكّرها؛ لكن بعضها يتناول المِنن التي يودّ أن يسديها لي. وأبقاني بالقرب منه بعض الوقت.

٤. لقد غادرتنا حضرتك بسرعة قصوى أمس وأنا أقدّر مشاغلك العديدة فلا أستطيع أن أجد لديك التعزية أقلّها الضرورية، لأنّني أرى ان مشاغلك أشدّ ضرورة، فلبثت برهةً في ألم وحزن. وقد ساعد على ذلك ما كنت أعاني من وحدة تحدّثت عنها؛ ولأن لا خليقة على الأرض أراها تقيّدني بها، فقد ساورني شكّ في أن أكون

قد بدأت أفقد حريتي. هذا ما حدث الليلة البارحة. وأجابني ربّنا اليوم على ذلك وقال لي ان لا أتعجّب، فكما ان الدنيويين يشتهون صحبة رفيق يتبادلون وإيّاه مسرّاتهم الحسيّة، هكذا النفس تتمنّى هذه الصحبة، عندما تجد من يفهمها لتشركه بأفراحها وأتراحها، وتحزن ان لم تجد أحدًا. وقال لي: "انّه الآن في الطريق الصحيح وأعماله ترضيني".

٥. لأنّه لبث معي برهة، تذكّرت انّي كنت قلت لحضرتك ان هذه الرؤى تمرّ سريعًا. فقال لي ان هناك فرقًا بين هذه وبين الرؤى الخيالية وان لا يمكن ان يوجد بين المِنن التي يمنحنا إيّاها قاعدة أكيدة، لأنّها تلائم أحيانًا بصورة ما وأحيانًا بصورة أخرى.

٦. ذات يوم، بعد المناولة، بدا لي بوضوح تامّ انّ ربّنا جلس بقربي وراح يعزّيني بمباهج وافرة، وقال لي، في ما قال: "انك ترينني هنا، يا ابنتي، اني انا. أريني يديك". وخِلته يمسك بهما ويدنيهما من جنبه، وقال: "انظري جراحي. فلستِ من دوني. احتملي قِصر الحياة".

استنادًا إلى بعض ما قال لي فهمت انه بعد أن صعد إلى السماء ما نزل قطّ إلى الأرض ليتّصل بأحد إلاّ في القربان الأقدس.

قال لي انه لدى انبعاثه رأى سيّدتنا لأنّها كانت بحاجة قصوى إلى رؤيته، فالألم كان يتملّكها ويخترقها حتى ما كانت تعود إلى ذاتها لتتنعّم بتلك اللذّة؛ (من هذا فهمت الاختراق الآخر الذي أصابني، ولو انه مختلف جدًّا عن ذلك؛ ولكن ما أشدّ ما كان لدى العذراء !)؛ وانه مكث طويلاً معها، فقد كان ذلك ضروريًّا لتعزيتها.

– ١٦ –

١. يوم الثلاثاء الذي يلي الصعود، قضيت برهة في التأمّل بعد أن تناولت بعناء لشرود ذهني وعدم قدرتي على التركيز على شيء فشكوت للربّ بؤس طبيعتنا. فشرعت نفسي تضطرم وبدا لي انني أدرك بوضوح قيامي بحضرة الثالوث الأقدس بكامله في رؤيا عقلية فهمت نفسي بها، بطريقة تمثيلية ما، كصورة عن الحقيقة لتستطيع غباوتي ادراكها، كيف ان الله ثالوث وواحد. وهكذا كنت إخال الأقانيم الثلاثة يحدّثونني ويتمثّلون في باطن نفسي متميزًا الواحد عن الآخر قائلين لي انّني، منذ اليوم، سأرى ثلاثة أمور تتحسَّن فيَّ لأنَّ كلاًّ من الأقانيم سيؤتيني منَّة: إحداها المحبّة واحتمال الألم بفرح والشعور بهذه المحبّة مضطرمة في النفس. فهمت تلك الكلمات التي يقولها الربّ بأنّ الأقانيم الإلهية الثلاثة يقيمون في النفس التي تكون في حالة النعمة، لأنّني كنت أراهم في باطني بالطريقة التي ذكرت.

٢. وإذ كنت بعدئذٍ أشكر الربَّ على هذه المِنَّة الكبرى فيما أجدني غير أهلٍ لها، قلت لجلاله بأسف شديد: ما دام سيغدق على مثل هذه المِنن فلماذا أرضى بي يده لأكون حقيرة هذه الحقارة؛ ذلك أنّي، في اليوم السابق، تألمت ألمًا شديدًا بسبب خطاياي عندما استحضرتها. كنت أرى بوضوح كلَّ ما فعله الربّ، منذ طفولتي، ليجذبني إليه بوسائل شديدة الفعاليّة، وكيف أنّني لم أستفِد من واحدة منها. فتمثّل لي إذ ذاك واضحًا حبّ الله المفرط لنا بغفرانه كلَّ هذا عندما نريد الرجوع إليه، وحبُّه إيّاي أكثر من حبِّه أيَّ شخص آخر لأسباب كثيرة.

ويبدو أن هؤلاء الأقانيم الثلاثة الذين رأيتهم إلهًا واحدًا، انطبعوا في نفسي انطباعًا راسخًا بحيث لو طالت تلك الرؤيا لاستحال عليَّ الانكفاء عن الاختلاء في رفقة إلهية كهذه.

وحصلت في ذلك الوقت أشياء أخرى وقيلت كلمات لا موجب لكتابتها.

– ١٧ –

ذات مرّة، قليلاً قبل هذه الرؤيا، كنت ماضية للتناول، والقربانة بعد في بيت القربان، ما أُعطيتها بعد، رأيت شبه حماقة ترفرف بجناحيها وتحدث ضجيجًا. فأربكني ذلك أيَّ إرباك وأَغرقني في ضياع فما تناولت القربانة إلاَّ بجهد جهيد. حدث هذا في دير القديس يوسف في أڤيلا. وكان يناولني القربان الأقدس الأب فرنشيسكو سالشيدو.

وفي يوم آخر، وأنا أحضر قدّاسه، رأيت الربُّ ممجَّدًا في القربانة. قال لي ان ذبيحته ترضيه.

– ١٨ –

ان حضور الأقانيم الثلاثة هذا الذي تحدثت عنه في البدء لمستمرّ في نفسي بطريقة مألوفة حتى اليوم — وهو تذكار القديس بولس؛ ولما كنت معتادة حضور يسوع المسيح دائمًا، فكأن عائقًا كان يحول دون رؤيتي الأقانيم الثلاثة، على معرفتي انّهم إله واحد؛ فقال لي الربّ، فيما أنا أُفكّر في هذا الأمر: أُخطئ إذا تصوّرت أمور النفس تتمثّل كشؤون الجسد، وعليَّ أن أفهم انّها متمايزة جدًّا، وان النفس قادرة ان تنعم بلذّة كبيرة فخيّل إليَّ أتمثّل نفسي وهي تمتلئ من تلك الألوهة، وتنعم بشكل ما بلذّة حضور الأقانيم الثلاثة فيها، كأسفنجة غاصت في الماء وأشبعت منه.

وسمعت أيضًا هذا الكلام: "لا تجتهدي في أن تحسبيني، أنا، فيك، بل في أن تحسبي نفسك فيَّ". فكان يبدو لي أنَّ هذه الأقانيم الثلاثة، المقيمة عندي وأراها، تتصل بالخلائق جميعها من دون أن أُحرم منها أو يفوتني حضورها معي.

– ١٩ –

بعد أيام قليلة، على ما ذكرت، وفيما أنا أفكّر أيكون على صواب من يلومنني على خروجي لتأسيس الأديار ويرون أنْ من الخير لي أن أصرف وقتي دائمًا في التأمّل، سمعت: "ما دام الانسان في هذه الحياة، فليس المكسب في السعي إلى مزيد من التنعّم معي، بل في عمل مشيئتي".

– ٢٠ –

في اليوم التالي ثامن عيد الزيارة، وفيما أن أكلُ إلى الله أمرَ أحّ لي في صومعة جبل الكرمل، قلت للربّ، ولا أدري إن قلت ذلك بالفكر: "لماذا أخي هذا موجود في مكان معرّض فيه خلاصة للخطر ؟ فلو إنّي رأيتُ، يا ربّ، أخًا لك في هذا الخطر، ما تراني كنت لا أعمله كي أنقذه ؟". وكنت إخالني لا أرى شيئًا أستطيع فعله فأنكفئ عن عمله.

فقال لي الربّ: "آه ! يا ابنتي ! راهبات دير التجسّد هؤلاء أخواتي، وأنت تتردّدين ؟ فلاّ تشجّعت؛ وانظر لي فأني أريد ذلك، وليس هو بعسير كما يُخيّل إليك؛ وان تحسبوا ان الأديار الأخرى ستصاب بخسران، فإنّ هذه وتلك ستحقّق مكسبًا. فلا تقاومي، فإنّ قدرتي عظيمة".

– ٢١ –

لقد فارفتني الرغبة في الموت والاندفاعات في تمنّيه، خصوصًا منذ عيد المجدليّة، عندما قرّرت أن أرغب في الحياة بطيبة خاطر لإزداد خدمة لله، ما خلا بعض الأحيان؛ فإنّ الرغبة في رؤيته تعاودني، وأراني عاجزة عن مقاومتها مهما حاولت دفعها.

– ٢٢ –

سمعا ذات مرّة: "سيأتي زمن فتحلصل آيات كثيرة في هذه الكنيسة؛ وسيدعونها الكنيسة المقدّسة". حدث هذا في دير القديس يوسف في أڤيلا، سنة ١٥٧١.

– ٢٣ –

كنت أفكّر ذات مرّة في شدّة التقشّفات التي تمارسها السيّدة كاتالينا دي كاردونا، وكيف انّه كان بإمكاني أن أفعل ما يزيد عليها، وفقًا للرغبات التي يولّدها الربّ فيَّ أحيانًا لأفعلها، لولا طاعتي معلّمي اعترافي، فأسائل نفسي هل خيرٌ لي أن لا أطيعهم في هذا الأمر بعد الآن. فقال لي: " أمّا هذا، فلا، يا ابنتي؛ إنّك تسيرين في طريق آمِن. أترين كلّ التقشّفات الجسدية التي تمارسها ؟ أقدّر طاعتك أكثر منها".

– ٢٤ –

ذات مرّة، وأنا غائصة في التأمّل، أَظهر لي الربّ بنوعٍ من رؤيا عقليّة غريبة كيف تكون النفس في حالة النعمة؛ رأيت في صحبتها الثالوث الأقدس برؤيا عقلية، ومن هذه الصحبة يَرِد إلى النفس سلطان تسيطر به على الأرض كلّها. وأُعطي لي أن أفهم تلك الكلمات من نشيد الأناشيد :"ليأتِ حبيبي إلى منّته وليأكل".

وكشف لي أيضًا كيف ان النفس في حال الخطيئة تكون خِلوًا من أيّ سلطان، بل تشبه انسانًا مقيَّدًا تمامًا، ومربوطًا، ومعصوب العينين، فلو أراد، لما استطاع أن يرى، ولا أن يمشي، أو يسمع، مُلْقى في ظلمة حالكة. فأَثارت اشفاقي أيَّ إشفاق النفوس التي على هذه الحال بحيث أستخفّ أيّة مشقّة لتحرير نفس واحدة. وبدا لي ان أيَّ إنسان يفهم هذا الأمر كما رأيته – ويصعب وصفه –، يستحيل عليه أن يرضى بخسران خير وفير كهذا، ولا أن يكون في هذه الحالة من السوء.

– ٢٥ –

١. عشيّة عيد القديس اسطفان، في السنة الأولى من رئاستي دير التجسّد، عندما بدأنا ترتيل السلام [لك يا ملكة، يا أمّ الرحم ة والرأفة]، شاهدت أمّ الله محاطة بحشد كبير من الملائكة، تنزل وتستقرّ على الكرسي الرئاسي حيث تمثال سيّدتنا، في ظنّي، أنّي ما رأيت التمثال بل السيّدة التي أتحدّث عنها. خيّل إليَّ انها تشبه الصورة التي قدمتها لي الكونتيسة، لكن الوقت مرَّ سريعًا فلم يُتَح لي التثبّت من الأمر لأني أخذت بانجذاب. كنت إخالني أرى ملائكة فوق مسند الكرسي ومُرتَفعَيْه؛ ما كنت أراهم بصورة جسيمة لأنّ الرؤيا كانت عقليّة.

لبثت طوال الترتيلة على هذه الحال، وقالت لي: "لقد أحسنتِ صنعًا بوضعي هنا؛ فسأشهد المدائح التي ترفع لابني وأقدّمها له".

٢. بعد ذلك، غصت في التأمّل الذي تعوَّدت نفسي أن تكون فيه مع الثالوث الأقدس وبدا لي أنّ أقنوم الآب يدنيني منه ويقول لي كلامًا عذبًا. وممّا قاله مبيّنًا لي مقدار محبته: "أمّا أنا، فقد أعطيتك ابني، والروح القدس، وهذه العذراء. فما تراك، أنت، تقدرين أن تعطيني؟".

– ٢٦ –

١. في أحد الشعانين، بعد التناول، لبثت منجذبة فما كنت أستطيع ابتلاع البرشانة؛ وحين عدتُ قليلاً إلى ذاتي والقربانة في فمي، خيّل لي في الحقيقة ان فمي كلّه امتلأ دمًا؛ كما تخيّل لي ان وجهي وجسدي كلّه مغطّيان بالدمّ وكأنّ الربّ أراقه لساعته. أظنّ أنّ الدمّ كان ساخنًا، وأنّ طلاوته التي كنت أحسّها حسنذاك بالغة. وقال لي الربّ: "يا ابنتي، أودّ أن يجديك دمي فائدة، وان لا تخافي من ان تفوتك رحمتي. لقد أرقته وسط آلام مبرّحة، وأنت، كما ترين، تتمتّعين به بلذّة كبرى. فأنا أكافئك بسخاء على الوليمة التي أقمتها لي اليوم".

قال هذا لأني منذ أكثر من ثلاثين سنة وأنا أتناول في هذا اليوم، إذا استطعت، وأجتهد في إعداد نفسي لأنزل الربّ فيها؛ فقد كنت أرى أن اليهود كانوا قساة جدًّا حين تركوه يذهب بعيدًا ليأكل بعد استقبالهم إيّاه ذلك الاستقبال الحافل، فأسعى ليبقى معي ولو في نُزُل حقير، كما أرى الآن. وهكذا كنت أقوم بتقديرات بلهاء، ويبدو ان الربّ كان يقبلها، فهذه واحدة من الرؤى الأوفر يقينًا عندي؛ وعليه فقد حقَّقت لي فائدة بشأن المناولة.

قبل ذلك مكثت ثلاثة أيّام، فيما أعقد، أعاني من ذلك الغمّ الكبير الذي أعانيه أحيانًا أشدَّ منه في أحيان أخرى، وهو انني بعيدة عن الله؛ وقد كان في هذه الأيام بالغ الثقل حتى خلتني لا أستطيع احتماله. ولما كنت منهمكة من التعب، رأيت ان قد تأخّر وقت تناول وجبة ولا أستطيع أكل شيء، وبسب التقيؤ كنت في هزال أعجزني عن الاغتذاء في حينه؛ وهكذا بجهد جهيد وضعت الخبز أمامي لأحاول أكله، فتمثّل لي المسيح حالاً هناك، وبدا لي انه يكسر لي الخبز ويريد ان يلقمني إيّاه وقال لي: "كلي، يا ابنتي، وتحمّلي ما استطعتِ التحمّل؛ يوسفني ان تعاني ما تعانين، لكن هذا يلائمك الآن".

تحرّرت من ذلك الغمّ وتعزت لأنّني، في الحقيقة، خِلتُه معي، وبقي معي النهار كلَّه، وهذا ما أشبع رغبتي حينذاك.

ان القول "يؤسفني" لفت انتباهي، لأنّه، في رأيي، لا يستطيع بعد أن يأسف على شيء.

– ٢٧ –

"ما الذي يشجيك، أيّتها الخاطئة الصغيرة ؟ ألست، أنا، إلهك ؟ ألا ترين كم يسيئون معاملتي هناك ؟ إذا كنت تحبيني، فلماذا لا تشفقين عليّ ؟

– ٢٨ –

بشأن الخوف من ان لا يكونوا في حال النعمة. "يا ابنتي، ان الفرق بين النور والظلمة لكبير. أنا أمين. لا أحد يهلك من دون أنيعرف ذلك. يخطئ من يطمئن لحصوله على أفضال روحيّة. الأمان الحقّ هو شهادة الضمير الصالح. ولا يعتقدّ أحد انه يستطيع البقاء في النور، بذاته، أو انه يقدر أن يمنع هبوط الليل؛ فهذه النعمة رهن بي. ان خير وسيلة ممكنة للبقاء في النور، هو أن يفهمَ الإنسان انّه لا يستطيع شيئًا، وان النور يأتيه منّي. فلئن يكن في النور، فإذا ابتعد، أنا، لحظة، يهبط الليل هذا هو التواضع الحقيقي: ان يعرف الإنسان قدرته، وما أقدرُ، أنا، عليه.

لا تهملي كتابة النصائح التي أعطيك لئلاّ تنسيها. ما دمتِ تريدين الحصول على نصائح الناس خطيًّا، فلماذا تعتبرين تسجيل نصائحي لك خطيًّا إضاعة للوقت ؟ سيأتي وقت تحتاجين فيه إليها كلّها".

– ٢٩ –

في إفهامه ماهية الاتحاد:

١. "لا تظنّي، يا ابنتي، ان الاتحاد قوامه أن تكوني قريبة جدًّا منّي، فقريبون منّي أيضًا هم الذين يهينونني ولو كرهوا. وليس قوامه البهجات والمسرّات في التأمّل ولو كان من درجة ساميّة جدًّا، ولو انها، هي، صادرة عنّي؛ إنّ هي، أحيانًا كثيرة، إلاّ وسائط لكسب النفوس ولو لم تكن هذه في حالة النعمة". عندما سمعت هذا الكلام، اراتفع روحي إلى أجواء ساميّة جدًّا. أفهمني الربّ ما هو الروح، وفي أيّ حال تكون النفس حينئذٍ، وكيف يجب أن تفهم كلمات "نشيد التعظيم": "وتبتهج روحي". لن أستطيع شرح ذلك؛ وإخالني أُفهِمتُ ان الروح يتجاوز الإرادة.

٢. وأعود إلى الاتحاد فأقول: فهمت انه هذا الروح النقي الذي يسمو على أشياء الأرض جميعها، ولا شيء فيه أرضيًّا يريد الخروج على إرادة الله، بل إنّما هو روح وإرادة متوافقان مع إرادته، وتجرُّدٌ عن كل شيء، روح مشغول بالله، لا أثر فيه لحبّ الذات أو لحبّ أيٍّ من الخلائق.

٣. ففكّرت: إذا كان هذا هو الاتحاد، فإنّ نفسًا قاطعةً دومًا هذا العزم، يمكننا القول إنّها دائمًا في تأمّل اتحاد؛ والحقيقة ان هذا النوع لا يدوم إلاّ قليلاً جدًّا. ويخطر لي ان [هذه النفس] ستسير، أجل، في الطريق السويّ وتحقّق مكسبًا وتقدّمًا؛ لكن لا يمكن القول انّها متّحدة مثلها في المشاهدة. وإخالني فهمت، ولو لم يكن بالكلمات، ان تراب بؤسنا، وأخطاءَنا، والمعوقات التي نعود فنسقط في غشاواتها تحول دون الصنعاء الذي ينعم به الروح عند اتحاده بروح الله، لأنّ هذا [الاتحاد] يتجاوز بؤسنا الشقيّ ويسمو عليه. فإذا كان الاتحاد هو هذا، أي اندماج إرادتنا وروحنا بروح الله، فيبدو لي، أنا، من المستحيل ان يناله من لم يكن في حال النعمة؛ وقد قيل لي انه لكذلك. وعليه أرى من الصعب جدًّا أن نعرف متى يكون هناك اتحاد إلاّ بنعمة خاصّة من الله لأنّنا لا نستطيع أن نعرف متى نكون في تلك الحال.

٤. أكتب لي، حضرتك، رأيك، وقل لي في ما أُخطئ، وتفضّل فأَرجع لي هذه الورقة.

- ٣٠ -

كنت قد طالعت في كتاب ان اقتناء صوَر فنيّة إنّما هو نقيصة، ولذا ما كنت أودّ الإبقاء على واحدة كانت في قلاّيتي؛ وقبل مطالعتي تلك، كنت أحسب من الفقر عدم اقتناء صورة إلاّ من ورق، فبعدما قرأت ما ذكرت، لم أعد أحتفظ بصور من نوع آخر. وفي لحظة من عدم اكتراث بالأمر سمعت هذه الكلمات: "ليست هذه إماتة صالحة؛ فما هو خيرٌ من الآخر: الفقر أو الحبّ ؟ فما دام الحبّ أفضل من الفقر، فما عليَّ أن أَتخلَّى عن شيء يوقظ الحبّ ولا أن أمنعه عن راهباتي؛ والكتاب كان يتحدّث عن الأُطر والزخارف الفضوليّة في الصور، وليس عن الصورة نفسها؛ فما كان الشيطان يفعله في اللوتيريّين إنّما هو نزعه منهم كلَّ الوسائل التي تزيد من إيقاظ الحبّ، فكانوا في ضلال. "ان مسيحييَّ، يا ابنتي، عليهم الآن أن يعملوا، أكثر منهم في أيّ وقت آخر، خلاف ما يعمله أولئك".

فهمت أنّ عليَّ إلتزامًا ثقيلاً بأن أخدم سيّدتنا والقديس يوسف، لأني كثيرًا ما رأيتني هالكة تمامًا فأعاد الله إليَّ الصحَّة بشفاعتهما.

– ٣١ –

في اليوم الثامن الذي تلا العنصرة وهبني الربّ منّة ومنحني أملاً بأنّ هذا الدير سيصير إلى أحسن؛ أعني النفوس التي فيه.

– ٣٢ –

في عيد المجدلية جدّد الربّ تثبيته منّة كان قد منحنيها في طيطلة، باختياري بديلاً عن شخص غائب.

– ٣٣ –

١. في اليوم التالي عيد القديس متى، وأنا في الحالة المعهودة منذ أن شاهدت رؤيا الثالوث الأقدس وكيف هو في النفس الكائنة بحال النعمة، قُدِّر لي أن أفهم ذلك بوضوح تامّ، بعض طرائق ومقارنات، ورأينه برؤيا خياليّة. ورغم أنّ الثالوث الأقدس أظهر لي نفسه أحيانصا أخرى برؤيا عقلية، لم تثبت فيَّ حقيقته بعد أيام من ذلك مثلها في هذه المرّة، أعني لأستطيع لأتفكّر بالأمر وأنال تعزية. وأرى الآن ان ما سمعته من ذوي علم مطابق لما أقول؛ ولم أفهمه مثلما فهمته اليوم، رغم أني آمنت به من دون تردد لأنّ تجاري إيمانية لم تراودني.

٢. نحسب، نحن الجهلة، أنّ أقانيم الثالوث الأقدس موجوديون ثلاثتهم في واحد – كما تراهم في الصوَر – مثلما تصوّر وجوده ثلاثة لجسم واحد، فيذهلنا ذلك أيّ ذهول حتى ليرى مستحيلاً، وليس من يجرؤ على التفكير فيه لأنّ العقل بتضايق ويخشى أن يشكّ في هذه الحقيقة، ويخسر مكسبًا كبيرًا.

٣. ما تمثّل لي هم أقانيم ثلاثة متمايزون يمكن أن يُشاهَد كلٌّ منهم بمفرده ويمكن التحدّث إليه على حدة. وفكّرت فيما بعد أن الإبن وحده اتخذ جسدًا بشريًّا وهو ما يظهر هذه الحقيقة. هؤلاء الأقانيم يحبّ أحدهم الآخر، ويتّصل به، ويعرفه. فإذا كان كلّ واحد منهم قائمًا بذاته، فكيف نقول ان الثلاثة جوهر واحد، ونعتقد ذلك، وهو حقيقة كبرى وأنا مستعدّة أن أموت في سبيلها ألف ميتة ؟ ليس للأقانيم الثلاثة إلاَّ مشيئة واحدة، وقدرة واحدة، وربوبيّة واحدة؛ فلا يستطيع بالتالي أحدهم شيئًا من دون الآخرين؛ بل ان للخلائق جميعًا إلهًا واحدًا. أفيستطيع الابن ان يخلق نملة من دون الآب ؟ كلا، فإنّ قدرة كليهما واحدة؛ وكذلك الروح القدس. وعليه، فليس هناك سوى إله كلّي القدرة، والأقانيم الثلاثة جلال واحد. أويمكن أن يحبَّ أحدٌ الآب من دون أن يحبّ الإبن والروح القدس ؟ كلا؛ إنَّ من يرضي أحد هؤلاء الأقانيم الإلهيّة الثلاثة، يرضي الثلاثة، وكذلك ان من يهين أحدهم يهين الثلاثة. أفيمكن أن يوجد الآب من دون الإبن ومن روح القدس ؟ كلا. لأنّ الثلاثة جوهر واحد؛ فحيث يوجد أحدهم، يكون الثلاثة موجودين، ولا يمكن فصل أحدهم عن الآخر. فكيف، إذن، نراهم ثلاثة أقانيم متمايزين ؟ وكيف اتخذ الإبن لنفسه جسدًا بشريًّا ولم يتخذه الآب ولا الروح القدس ؟

هذا الأمر لم أفهمه؛ اللاهوتيون يعرفونه. لكنّي أعرف جيّدًا ان الثلاثة جميعًا اشتركوا في ذلك العمل المعجب [التجسّد] فلا أشغل فكري فيه كثيرًا. لكي فكري يرتاح في النتيجة إلى ان الله كليّ القدرة، ولأنّه أراد

ذلك فقد أمكنه فعله، وكذلك فانه يستطيع كلَّ ما يريد؛ وبقدر ما أقصّر عن فهمي الأمر ازداد ايمانًا به وتزداد عبادتي. فليكن مباركًا إلى الأبد. آمين.

– ٣٤ –

لم لم يكن الربّ قد أغدق عليَّ ما أغدق من المِنن، لما ملكت شجاعة، فيما أظنّ، للقيام بالأعمال التي تحقّقت، ولا قوّة كافية لاحتمال المشقّات التي عانيت، المناهضات، والأحكام الاعتباطية. وعليه، فمنذ بدأت التأسيسات فارقتني المخاوف التي كانت تلازمني من جرّاء تفكيري انني مخدوعة، ورسخ فيَّ يقين انّ الله من يعمل، فكنت أَرمي بنفسي في مشاريع صعبة، ولو بعد طلب المشورة واعتماد الطاعة. فمن ثمَّ فهمت ان ربّنا لما أراد أن يحيي روح هذه الرهبانية واتخذني برحمته وسيلة لذلك، كان على جلاله ان يوفّر لي ما يفوتني، أعني كلَّ شيء، لتحقيق نتيجة لإظهار عظمته بواسطة شيء كهذا حقير.

– ٣٥ –

في السنة الثانية من رئاستي دير التجسّد، وفي اليوم الثامن بعد عيد القديس مرتين، كنت على أهبّة التناول، قَسمَ الأب خوان دي لا كروث [يوحنا الصليب] القربانة التي كان يناولني ليعطي جزءًا منها لراهبة أخرى. لا أظنّه فعل ذلك لنقص في البرشانات بل لأنّه كان يريد أن يفرض عليَّ إماتة، فقد كنت قلت له اني أحبّ كثيرًا أن تكون البرشانات كبيرة (ليس لجهلي ان لا أهميّة لحجم القربانة لوجود الربّ وجودًا كاملاً فيها مهما كانت صغيرة). فقال لي جلاله: "لا تخافي، يا ابنتي؛ لن يستطيع أحد أن يفصلك عنّي"؛ فأفهمني بهذا أنّ لا أهميّة للأمر. حينئذٍ تمثَّل لي برؤيا خياليّة مثله في مناسبات أخرى، وفي عمق أعماقي، وأعطاني يده اليمنى، وقال لي: "انظري هذا المسمار؛ انّه علامة بأنك ستكونين عروسًا لي منذ اليوم. لم تستحقّي هذا حتى الساعة؛ لكن من الآن فصاعدًا، ستتعهّدين شرفي، ليس فقط كخالق، وكملك، وكإله لك، بل كعروس حقيقية لي؛ شرفي هو شرفك، وشرفك شرفي". لقد أثّرت في هذه المنّة تأثيرًا لم أعد معه أملك أمري، فلبثت وكأنّي ذاهلة، وسألت الربّ إمّا أن يرفعَ دناءَتي أو لا يمنحني منّة كهذه لأنّ طبعي، في الحقيقة، ما كان ليستطيع، في تصوّري، تقبّل ذلك. فلبثت النهار كلّه متولّهة، ذاهلة. ونعمت مذ ذاك بنفع جزيل، وشعرت بمزيد من ارتباك وغمّ حين رأيتني بعيدة كلّ البعد عن مستوى هذه المِنن العظيمة.

– ٣٦ –

١. هذا ما قاله لي الربّ أمس: "أوتظنّين، يا ابنتي، ان الكسب قوامه المتعة ؟ بل لا يقوم على العمل، والتألم، والحبّ. أما سمعت ان القديس بولس تذوّق المتع السماوية أكثر من مرّة، لكنّه كثيرًا ما تألّم ؟ ترين ان حياتي مليئة كلّها الألم: أَوَسمعتِ أنّني نعمت بمتعة إلاَّ مرّة واحدة، في جبل طابور ؟ عندما ترين أمي تحملني بين ذراعيها لا تظنّي انها كانت تستمتع بتلك المسرّات دونما تبريح شديد. منذ أن قال لها سمعان الشيخ تلك

الكلمات أعطاها أبي نورًا وضاءً لترى بوضوح كما سيكون عليَّ أن احتمل من آلام. ان القديسين العظام الذين عاشوا في القفار، كان الله يقودهم فيمارسون تقشّفات قاسية، ولولا ذلك لخاضوا معارك رهيبة مع الشيطان ومع أنفسهم. كانوا يقضون فترات طويلة من دون أيّ تعزية روحيّة. صدّقي، يا ابنتي، ان ابي ينزل أشدّ المشقّات بمن يكن له أكبر حبّ؛ فالمشقّات تقابل الحبّ. كيف أستطيع أن أبيّن حبّي لك بأوضح من أن اريد لك ما أريده لنفسي ؟ انظري هذه الجروح؛ ان آلامك ما بلغت أبدًا هذا الحدّ. هذه هي طريق الحقيقة. انّما تساعديني في البكاء على الضياع الذي يعيش فيه أهل العالم بأن تفهمي هذا: ان رغبائهم كلّها، واهتماماتهم، وأفكارهم تستخدم للحصول على خلاف ما يقصدون.

٢. عندما بدأت التأمّل، كنت أعاني من آلام شديدة في الرأس فأخالها تحول دون ممارستي إيّاه. فقال لي الربّ: "بهذا سترين مكافأة الألم: فعندما لم تكن صحّتك التحدّث إليَّ، كنت، أنا، أحدّثك وأنعّمك". وهذا ما حصل حقًّا؛ فقد بقيت غارقة في الخلوة ساعة ونصف ساعة، أو دون ذلك قليلاً. وفي هذا الوقت قال لي الكلمات التي ذكرت وغيرها. لم يشرد ذهني، ولا أدري أين كنت، إلاَّ انّ سروري لا أستطيع وصفه، وصَفا رأسي حتى اني ذهلت، واشتدّت رغبتي في الألم.

في الحقيقة، لم أسمع، اقلّه أنا، أن الربّ نعم بلذّة تلك المرّة فقط [في طابور]، ولا القديس بولس. وقال لي أيضًا ان أتذكّر دائمًا الكلمات التي قالها الربّ لرسله "ما كان جادم أعظم من سيّده".

– ٣٧–

رأيت عاصفة من المحن شديدة، ومثلما اضطهد المصريّون بني اسرائيل هكذا سنُضطَهَد، نحن، أيضًا، الاَّ ان الربّ سيجعلنا نمرّ على اليبس أما الأعداء فستغطّيهم الأمواج.

– ٣٨ –

كنت ذات يوم في دير بياس، فقال لي ربّنا ان ألتمس منه ما أريد لأني عروسه وهو يعدني بأن يمنحني كلَّ ما أَسأله. وعربونًا على ذلك أهداني خاتمًا جميلاً مرصَّعًا بحجر من الجمست غير انّ بريقه يختلف تمامًا عن بريق حجارة الأرض، ووضعه في اصبعي. انّما أكتب هذا وأنا مرتبكة؛ فمقابل جودة الله أرى حياتي الحقيرة، واني استحقّ بسببها جهنّم. لكن، آه، يا بناتي ! أوكِلْنَ أمري إلى الله، وتعبّدت للقديس يوسف، فانه عظيم القدرة. اكتب هذه السخافة...

– (٤١=) ٣٩ –

١. في يوم من أيام العنصرة، كان شخص في إثيخا، فتذكّر منّة كان قد أعطاه إيّاها ربّنا ذات عشية من ذلك العيد، فرغب أن يقوم بخدمة له خصوصية، فبدا له حسنًا أن يَعِدَ بعدم إخفاء أيّ ذنب أو خطيئة يفعلها

ابتداء من ذلك اليوم وطيلة حياته عن عرّفه الذي يقوم حياله مقام الله لأنّ هذا الإلتزام لا يُفرَض عليه تجاه الرؤساء. ورغم ان هذا الشخص كان قد نذر الطاعة، فرأى ان هذا الوعد يزيد إلتزامه. كما وعد بأن يفعل كلَّ ما يقوله له [معرّفه] على أن لا يكون مخالفًا للطاعة التي نذرها في أمور حظيرة، طبعًا ورغم أنّ الأمر كان شاقًّا عليه في البدء، فقد أعطى الوعد.

٢. أول سبب دفعه إلى هذا العزم إدراكه إنّه يؤدّي خدمة ما للروح القدس؛ ثانيًا تقديره المعرّف الذي اختاره خادمًا كبيرًا لله وعلامة ينير نفسه ويساعده على زيادة اندفاعه في خدمة الله.

أمّا الشخص نفسه [المعرف] فلم يعرف شيئًا عن هذا الأمر إلاّ بعد بضعه أيّام من إعطاء الوعد. وهذا الشخص هو الأب هيرونيموس غراثيان لأم الله.

انها شؤون تمتّ إلى الضمير.

– ٤٠ (٣٩ – ٤٠) –

هذا أمر يخصّ نفسي وضميري. فلا يطالعنَّه أحد، حتى بعد موتي، بل فليُعطَ للأب المعلّم غراثيان.

يسوع مخلّص البشر

١. في شهر نيسان من سنة ١٥٧٥، كنت أهتمّ بتأسيس دير بياس عندما وصل المعلّم الأخ ايرونيموس لأمّ الله غراثيان الذي كنت قد اعترفت لديه أحيانًا ولو أنه لم يقم في مقام معرّفين آخرين، كنت قد اتخذتم، أو ليدبّر شؤون نفسي تدبيرًا كاملاً. وفيما كنت أتناول الطعام ذات يوم من دون أي اختلاء باطني، بدأت نفسي تنقطع وتختلي بحيث فكّرت بدنوّ انخطاف، وتمثّلت لي هذه الرؤيا بالوقت الوجيز المألوف، أي بسرعة البرق.

١. في شهر نيسان من سنة ١٥٧٥، كنت أهتمّ بتأسيس دير بياس عندما وصل المعلذم الأخ ايرونيموس لأمّ الله غراثيان، بدأت أعترف لديه أحيانًا ولو لم يَقُمْ في مقام معرّفين آخرين كنت قد اتخذهم، أو ليدبّر شؤون نفسي تدبيرًا كاملاً. وفيما كنت أتناول الطعام ذات يوم، بدأت نفسي تنقطع وتختلي بحيث فكّرتُ بدنوّ انخطاف، وتمثّلت لي هذه الرؤيا بالوقت الوجيز المألوف، أي بسرعة البرق.

٢. بدا لي أن ربّنا قائم بقربي ربّنا يسوع المسيح بالصورة التي اعتاد جلاله أن يتمثّل لي فيها، وكان إلى جهّة اليمين المعلّم غراثيان نفسه، وكنت، أنا، إلى جهّة اليسار. فأخذ الربّ اليد اليمني لكلّ منّا وجمعهما وقال لي انّه يريدني أن اتّخذه مكانه ما دمت على قيد الحياة، ويريدنا أن نكون متوافقين في كلّ شيء، لأمّ هذا هو الأمر المناسب.

٢. خلتُني أَرى بقربي ربّنا يسوع المسيح بالصورة التي بتمثّل لي فيها جلاله عادة، وكان قائمًا إلى يمينه المعلّم غراثيان نفسه، فأخذ الربّ يده اليمنى ويدي وجمعهما وقال لي انه يريدني أن اتخذه مكانه طوال حياتي ويريدنا أن نكون متوافقين في كلّ شيء، لأنّ هذا هو الأمر المناسب.

٣. تملّكني يقين تامّ من أنّ ذلك كان من عند الله. فرغم استحضاري بالفكر معرّفَين ارشداني زمنًا طويلاً واتبعتهما وأنا مدينة لهما بالكثير، وكانا يقاومانني خصوصًا مقاومة كبيرة (كانت مقاومة احدهما شديدة، فكأني كنت أهينه، كنت أكنّ له احترامًا ومحبّة)، تيقنت أخيرًا ممّا حصل الآن ان هذا ما كان يناسبني، وقد خفّف عنّي تصوّري انني انتهيت من الحيرة بين آراء مختلفة بعضها كان يؤلمني كثيرًا لعدم فهمهم حقيقة أمري؛ على اني ما تخلّيت قطّ عن أحد متصوّرة نفسي مخطئة إلى أن يمضي هو في سبيله أو أمضي، أنا، في طريقي. وعاد الربّ فقال لي مرّتين، وبكلمات مختلفة، ان لا أخاف. وهكذا صمّمت على أن لا أفعل خلاف ذلك، وقصدت ان أنفّذ أمره ما دمت حيّة، متّبعة رأيه [الأب غراثيان] في كلّ شيء إلاّ ان يتعارض بوضوح مع الله، وأنا على يقين راسخ انه لن يتعارض. فقصدي في السعي إلى الأكمل في كلّ شيء هو قصده، في اعتقادي، كما فهمت ذلك من بعض أمور.

٣. تملّكني يقين تامّ من أنَّ [مَن كلّمني] كان الله. ورغم استحضاري بالفكر معرّفَيْن أرشداني مرارًا زمنًا طويلاً فاتّبعتهما، وأنا مدينة لهما بالكثير (خصوصًا أحدهما الذي أكنّ له تقديرًا كبيرًا وكان يعارضني)، رغم ذلك لم أكن أقتنع ان هذه الرؤيا خدعة. فقد أحدثت فيَّ عمليّة كبرى ونفحتني قوّة. إضافة إلى ذلك، قال لي [الربّ] مرتين بكلمات مختلفة، ان لا أخاف لأنّه، هو، يريد ذلك. فقرّرت أخيرًا أن أفعل ما طلبه لإدراكي ان هذه إرادته، وان اتّبع رأيه [الأب غراثيان] ما دمت حيّة؛ وهذا لم أفعله مع آخر أبدًا، رغم أني تعاطيته مع كثيرين من ذوي العلم الراجح والقداسة، وكانوا يعنون بأمور نفسي باهتمام كبير. لكنّي لم أكن قد فهمت ما فهمته الآن فأغيّر موقفي منهم؛ فإن اعتمادي إيّاهم مرشدين، أو بعضهم، كان يناسبني كما يناسبهم.

٤. لبثت في سلام وارتياح كبيرين اذهلاني وشهدا على ان تلك إرادة الله. فأنا لا أظن الشيطان قادرًا على ان يلقي في النفس هذا السلام الوفير وهذه التعزية. خلتني لم أَعدُ أنا ذاتي بفعل براعة أعجز عن وصفها. غير اني كلّما تذكّرت ما حصل اسبّح ربّنا، وتخطر لي الآية القائلة: "من يجعل تخومه سلامًا"، فأشتهي أن استغرق في تسبيح الله.

أظنّ ان ذلك سيكون في سبيل مجده؛ وعليه أعود الآن فأؤكّد قصدي بأن لا أغيّر موقفي أبدًا.

٤. وإذ صمّمت على ذلك، ليثت في سلام وارتياح كبيرين اذهلاني وأكّدا ان تلك إرادة الربّ. فأنا لا أظنّ الشيطان قادرًا على أن يلقي في النفس هذين السلام والتعزية الوفيرين. وعليه عندما أتذكّر ما حصل أسبّح الربّ وتحضرني تلك الآية القائلة: "من يجعل تخومه سلامًا"، فأشتهي أن استغرق في تسبيح الله.

٥. بعد تصميمي هذا، كنت في طريقي ألى أشبيلية في اليوم التالي للعنصرة، فحضرنا القدّاس في محبّة في إثيخا، ومكثنا فيها للقيلولة. وفيما كانت رفيقاتي في المحبسة وأنا وحيدة في مَوْهِف هناك، رحت أتأمّل المنّة العظيمة التي صنعها معي الروح القدس عشية هذا العيد، فثارت فيّ رغبات قويّة لأبادله بخدمة مميّزة؛ فلم أجد شيئًا لم أفعله. وتذكّرت اني قد نذرت الطاعة لكنّي لا أفي إلاّ لنذر ما يستطاع من الكمال؛ فتمثّل لي أنَّ قد يكون مرضيًا لديه [الروح القدس] وعدي بما كنت قصدته من طاعة للأب الأخ ايرونيموس. فمن جهّة، كنت أخال ذلك لا شيء، وأراه من جهّة أخرى شديدًا عليَّ جدًّا باعتبار ان باطن النفس لا يكشف للرؤساء، وأن

الرؤساء، في نهاية المطاف، يتغيّرون، فإذا لم أرتح إلى واحد يخلفه آخر؛ وإلاّ فإني أعطّل حريتي، باطنيًّا وخارجيًّا، طوال حياتي. فعانيت من ضغط قليل، بل شديد كي لا أفعل.

٥. بعد شهر ربّما على تصميمي هذا، في اليوم الثاني للعنصرة، كنت متوجّهة إلى تأسيس في أشبيلة، حضرنا القدّاس في محبسة في إثيخا، ومكثنا هناك للقيلولة. وفيما كانت رفيقاتي في المحبسة، بقيت، أنا، وحيدة في الموهف. رحت أتأمّل في منّة كبيرة صنعها معي الروح القدس عشية هذا العيد، فأجتاحني رغبة قويّة في أن أقدّم له خِدمة مميّزة، فلم أجد شيئًا لم أفعله، أو أقلّه مصمّمة على فعله، فمهما فعلنا فإنّ شيئًا يفوتنا. فتذكّرت أني، بما اني قد نذرت الطاعة، فيمكن وفاء النذر بكما أوفر. فتمثّل لي ان قد يكون مرضيًا لديه ما كنت قصدت من إطاعة الأب المعلّم الأخ ايرونيموس. فمن جهّة كنت إخالني لا أفعل بذلك شيئًا، لأنّني كنت مصمّمة على أن أصنعه. ومن جهّة أخرى، كنت أرى الأمر شديد الوطأة عليَّ باعتبار ان الرؤساء الذين تبرز النذور أمامهم لا يُكشف لهم الباطن؛ وهم يتغيَّرون؛ فإذا لم يرتح أحدنا لرئيس، فإنّ آخر يخلفه، وإلاّ فيبقى الواحد محرومًا من الحرية الخارجية والباطنية حرمانًا كاملاً طوال حياته. فعانيت من ضغط شديد كي لا أفعل.

٦. هذه المقاومة نفسها التي اعتبرت إرادتي، سبّبت لي حزنًا إذ بدا لي ان هناك شيئًا ما أرفض فعله حبًّا بالله عندما تسنح لي الفرصة ان أفعل ما تهرّبت منه دومًا. الواقع ان الصعوبة ضغطت عليَّ بشدّة فحسبتني لم أصادف في حياتي مقاومة كهذه اتغلَّب عليها حتى عند ابرازي النذور، إلاّ إذا استثنيت مغادرتي البيت الوالدي لدخول الدير. وسبب ذلك اني لم أكن أعي مقدار حبّي له، ولا الصّفات التي بتحلّى بها، وكنت أحسبه حينئذٍ كغريق، بل كنت أتساءَل فقط إذا كان ذلك النذر خليقًا بأن يُصْنَع حبًّا بالروح القدس. واعتقد أن تردّدي كان يعود إلى شكوكي في ما إذا تصرّفي يؤدّي خدمة لله.

٦. هذه المقاومة نفسها التي صدرت عن إرادتي سبّبت لي خزيًا فقد بدا انه سنح لي أن أفعل شيئًا حبًّا بالله ولا أفعله، وهو أمر شديد الوطأة على تصميمي على خدمته. الواقع ان الصعوبة ضغطت بشدّة فحسبتني لم اصادف في حياتي مقاومة مثلها شدّة أتغلّب عليها حتى عند إبرازي النذور، ما خلا مغادرتي البيت الوالدي لدخول الدير. وسبب ذلك انه غاب عن ذهني كم أحبّه والصفات التي يتحلّى بها تنفيذ مقصدي، بل كنت أحسبه حينئذٍ وكأنّه غريب، فأصبت بذهول؛ بل أخذني خوف مريع ممّا إذا كان ذلك خدمة لله، وكان على الطبع الذي يميل إلى الحريّة أن يعمل وظيفته، رغم أنّي، منذ سنوات، لا يطيب لي أن أمتلك [هذه الحرية]، بل اعتبرني ملزمة بشيء آخر بفعل النذر، كما هي الحقيقة في الواقع.

٧. بعد معركة قصيرة أَعطاني الربّ ثقة عظيمة، فرأيت أنّي ما دمت قد وعدت ما وعدت بفعل الروح القدس، فهو ملزَم ان يعطيَ الأب غراثيان أمورًا كي يعطيني إيّاه بدوره؛ إضافة إلى ذلك تذكّرت ان ربّنا يسوع المسيح كان قد أنارني. فجثوت على ركبتيَّ ووعدت بأن أفعل طوال حياتي كلَّ ما يقوله لي، على أن لا يكون ضدّ الله أو الرؤساء الذين ألتزم طاعتهم. واجتنابًا للوساوس، حددت ان الوعد يتناول الأمور الخطير، فإذا أزعجه شيء ما فله أن يطلب إليَّ ألاَّ أحّثه به، أو بأمور ذات صلة برفاهيتي أو رفاهيته، وهي تصرّفات صبيانيّة لا تتمّ عن رغبة في التخلّف عن الطاعة؛ كما يقضي الوعد بأن لا أخفي عنه، عن قصد، أي ذنب أو خطيئة، وهذا يتجاوز ما يُصنع مع الرؤساء. الخلاصة، أن أعتبره قائمًا مقام الله باطنيًا وخارجيًا.

٧. بعد معركة قصيرة، أَعطاني الربّ ثقة عظيمة، وبدا لي ان الوعد يزداد فيمة بازدياد القناعة به؛ وبما اني أفعله حبًّا بالروح القدس، فهو ملزم ان يعطي الأب غراثيان نورًا كي يعطيني إيّاه بدوره، فجثوت على ركبتيَّ ووعدت بأن أفعل، طوال حياتي، كلّ ما يقوله لي، خدمة للروح القدس، على أن لا يكون ضدّ اللهأو مخالفًا لأوامر الرؤساء الذين التزم طاعتهم. حدّدت إنّني لا ألزم نفسي بأمور قليلة الأهمية، كأن لا أزعجه، أو أقول له شيئًا فيدعوني لتركه فلا أنتبه وأعيد الكرّة، أو أتناول شؤونًا تعود إلى رفاهيتي؛ الخلاصة، أن لا أشغله بتوافه أفعلها بدون انتباه؛ وأَن لا أخفي عنه، عن قصد، أيَّ ذنب أو خطيئة أو باطن نفسن، وهذا أيضًا بتجاوز ما يصنع مع الرؤساء. الخلاصة، أن أعتبره قائمًا مقام الله خاردجيًا وباطنيًا.

٨. لا أدري إذا استحققت كسبًا، لكن بدا لي انني أتممت عملاً مهمًّا بفضل الروح القدس، أقلّه عملت كلّ ما عرفت، وهكذا لبثت راضية تمام الرضا، فرحة مذ ذاك وحتى الآن. وفيما كنت أخشى أن أكون متضايقة، أشعر بحرّيةٍ أوفر وبثقة أكبر ان ربّنا سيمنحه مِننًا جديدة مقابل هذه الخدمة التي قدمتها له، لأنال نصيبًا من ذلك المِنن، وليعطيني نورًا في كل مسعى.

فليكن مباركًا من خلق شخصًا وقّر لي رضا فأجترأت على فعل هذا النذر.

٨. لا أدري إذا الأمر كذلك، لكن بدا لي أنّني أتيت عملاً عظيمًا بفضل الروح القدس، أقلّه على قدر ما عرفت، وصغيرًا جدًّا مقابل واجبي نحوه. أحمد الله لأنّه خلق شخصًا يستوعبني، ولي ملء الثقة ان جلاله سيؤتيه مِننًا جديدة؛ وأنا فرحة ومسرورة جدًّا لأني أرى انني تحرّرت من ذاتي من كلّ وجه. وفيما كنت أفكّر انني سأكون متضايقة بالخضوع، بتّ أتمتع بحرية أكبر. فليكن مباركًا على كلّ شيء.

– ٤٢ –

كنت في عيد المجدلية أعتبر الصداقة التي عليَّ أن أكنّها لربّنا وفقًا للكلمات التي قالها لي عن هذه القديسة، فنازعتني رغبة قويّة في الاقتداء بها، فمنحني لاربّ منَّة كبيرة وقال لي: "اجتهي من الآن فصاعدًا في ان تخدميني أكثر ممّا فعلت حتى اليوم". خالجتني رغبة في أن لا أموت باكرًا كي يتاح لي الوقت لأجدّ في خدمته، ولازمني عزم ثابت على قبول الألم.

– ٤٣ –

كنت ذات يوم خالية بنفسي أَكِلُ إلى الله اليشع، فسمعت هذا الكلام: "انه ابني الحقيقي، لن أكفّ عن مساعدته"، أو كلامًا مماثلاً لا أذكره بدقّة.

– ٤٤ –

١. بعد تناولي القربان عشية عيد القديس لورنثو كان فكري شاردًا، ساهيًا فلا أملك أمري؛ فبدأت أحسد قاطنيّ القفار وفي ظنّي انّهم متحرّرون من شرور الذهن لأنهم لا يسمعون ولا يرون شيئًا. فسمعت هذا الكلام: "انك لعلى خطأ كبير، يا ابنتي؛ على عكس ما تظنين، هناك بجابهون تجارب شديدة من الشياطين؛ تصبّري، فلا مناص من التجارب ما دامت الحياة".

٢. وفيما أنا في هذه الحال، غمرتني فجأة خلوة ونفذ إلى باطني نور ساطع فكأني في عالم آخر، وعاد روحي إلى ذاته في غَيْضة وفي حديقة ممتعة أَيَّ إمتاع، ما ذكّرني قول نشيد الأناشيد: "ليأتِ حبيبي إلى جنّته". فشاهدت هناك اليشعي، لا سواد فيه إطلاقًا، بل رائع الجمال؛ كان على رأسه ما يشبه إكليلاً من حجارة كريمة، ويسير أمامه عدد كبير من العذارى حاملات بأيديهنَّ إغصانًا، يرنّمن أناشيد تمجيدًا لله. وكنت أُصرّ على فتح عينيّ لعلّي أسهو عن المشهد، ولكن من دون جدوى، بل كنت إخالني أسمع موسيقى تعزفها عصافير وملائكة فتستمتع بها النفس؛ ورغم أنّي ما كنت أسمعها، كانت، هي، تشارك في تلك اللذّة. كنت أنظر فلا ارى هناك رجلاً آخر. قيل لي: "هذا استحقّ أن يكون بينكنّ، وفي اليوم الذي يحدّده، فإنّ هذا العيد الحافل الذي تشاهدينه سيقام على شرف أمي؛ فاسرعي إذا أرادت أن تبلغي إلى حيث هو".

٣. دام هذا اكثر من ساعة ونصف ساعة، وأنا عاجزة عن صرف انتباهي عنه، مغمورة لذّة مختلفة عنها في مناسبات أخرى. أطلع لي ذلك حبًّا لأليشع ورؤيته رؤية واضحة في طلعة بهيّة. داخلني خوف من أن تكون تجربة، إذ يستحيل أن يكون الأمر نسج خيال.

– ٤٥ –

فهمت ذات يوم كيف ان الربّ موجود في كلّ شيء وكيف هو في النفس، فخطر لي تشبيه ذلك بأسفنجة تستوعب الماء في ذاتها.

– ٤٦ –

عندما جاء أخواي، وأنا أدين لأحدهما باكثير، ما انقطعت عن مقابلته وعن التداول معه بما يناسب نفسه وإقامته فكان هذا يسبّب لي تعبًا وألمًا. كنت أقدّم ذلك للربّ وفي ظنّي أني أفعله لأنّه فرضٌ عليَّ، فتذكّرت ان رسومنا تطلب منّا الابتعاد عن الأقارب؛ وبينما أنا أفكّر أيكون هذا الطلب ملزمًا، قال لي الربّ: "كلا، يا ابنتي؛ ليس على مؤسساتكنّ إلاَّ أن تكون متوافقة مع شريعتي". الحقيقة، ان نيّة الرسوم ان لا نتعلّق بالأقارب؛ بل أرى ان هذا التعاطي معهم بتعبني، ويبلبلني.

– ٤٧ –

ما ان تناولت القربان في عيد القديس اغسطينوس أعطي لي أن أفهم، لا أدري كيف، وأن أرى تقريبًا، إلاَّ انها كانت رؤيا عقليّة مرّت سريعًا، كيف ان الأقانيم الثلاثة في الثالوث الأقدس المطبوعين في نفسي هم جوهر واحد. لقد أُعطيت ان أفهم ذلك بفضل رسم رائع ونور ساطع كان لهما أثر مختلف جدًّا عن أثر الاعتقاد بالإيمان فقط. ومنذئذٍ، لبثت لا أستطيع التفكير بأحد الأقانيم الإلهية الثلاثة من دون أن أفهم انّهم ثلاثة، بحيث اني كنت أتساءَل اليوم كيف الإبن وحده صار انسانًا رغم كون الثلاثة جوهرًا واحدصا، فأفهمني الربّ كيف انّهم متميّزون على كونهم جوهرًا واحدًا. انها لأمور ساميّة فتعود النفس تتمنّى ثانية الخروج من الجشد الذي يعيق تمتعها بها. فرغم الإعتقاد ان إدراك شيء عنها ليس بمتناول داءَتنا، فإنّ النفس إذا التقطت لمحة عنهم، تجني، ومن دون أن تعرف كيف، مكسبًا يفوق للغاية ما تجنيه بالتأمّل في سنوات كثيرة.

– ٤٨ –

في عيد ميلاد سيّدتنا أسغر بفرح خاص. عندما يحلّ هذا العيد، أرى من المناسب تجديد نذوري. وعندما هممت بذلك تمثَّلت لي العذراء سيّدتنا برؤيا نورانيّة مِخلْتُني أَبْرزها بين يديها وكان ذلك مستحبًّا لديها. لازمتني هذه الرؤيا بضعة أيّام والعذراء قائمة بقربي، إلى يساري.

– ٤٩ –

ما ان تناولت ذات يوم حتى بدا لي حقًّا ان نفسي صارت شيئًا واحدصا مع جسد المخلّص المقدّس ذاك، وقد تمثّل لي حضوره فأثّر فيَّ تأثيرًا كبيرًا وأحدث لي نفعًا وفيرًا.

– ٥٠ –

كنت أتساءَل ذات يوم إذا كنت سأكلَّف الذهاب لإصلاح أحد الأديرة، فكان الأمر يؤلمني. فسمعت: "ممَّ تخافين ؟ ما تُرى يمكنك أن تخسري سوى حياتك التي قدَّمتِها لي مرارًا عديدة ؟ أنا سأساعدك". وكان من أَمر المناسبة أن وفّرت لنفسي ارتياحًا كبيرًا.

– ٥١ –

تحدثت ذات يوم إلى شخص كان قد تخلّى عن الكثير في سبيل الله فتذكّرت كيف اني ما تركت أبدًا شيئًا من أجله، ولا خدمته في أمر كما يتوجّب عليّ، ونظرت المِنن الوفيرة التي غمرتها نفسي، فبدأ يتملكني تعب شديد، فقال لي الربّ: "تعلمين الخطوبة المعقوبة بينك وبيني، فمن ثمّ، ما هو لي فهو لك، وعليه فأنا أعطيك جميع المشقّات والآلام التي قاسيتها، وهكذا يمكنك أن تطلبيها من أبي كملك خاصّ لك". ورغم أنّي سمعت أقول أنّنا شركاء فيها، فقد جاءت الشّراكة الان بطريقة مختلفة فبدت سيادة رفيعة، لأنّ الصداقة التي تمّ بها مَنْحي هذه

المِنّة لا يمكن أن توصف هنا. بدا لي انّ الآب موافق على ذلك، ومنذئذٍ أنظر إلى آلام الربّ نظرة مختلفة تمامًا، فكأنّها شيء يخصّني، وهذا يخفّف كربي تخفيفًا.

– ٥٢ –

فيما كنت ذات يوم أَشتهي أن أعمل شيئًا ما خدمةً لربّنا، فكّرت كم هو ضئيل ما أستطيع أن أخدمه به؛ وقلت في نفسي: "لماذا تريد منّي، يا ربّ، هذه الأعمال ؟". فقال لي: "لأرى إرادتك، يا ابنتي".

– ٥٣ –

أعطاني الربّ ذات يوم نورًا في أمر لذّ لي فهمُه، لكن ما لبثت أن نسيته بعد قليل فما استطعت أن استذكره فيما بعد. وبينما كنت أحاول تذكّره، سمعت هذا: "تعلمين إنّني احدّثك أحيانًا، فلا تتخلّفي عن كتابة ما أقول؛ فلئن لم ينفعك، فقد ينفع آخرين". فتساءَلت إذا كان عليَّ أَن أنقذ آخرين بخطاياي وأهلك، أنا. فقال لي: "لا تخافي".

– ٥٤ –

كنت تختلية ذات مرّة بصحبة من يلازم نفسي دائمًا، فخِلْتُني أرى الله حاضرًا فيها بطريقة تذكّرت معها ما قاله القديس بطرس: "المسيح، ابن الله الحي"، لأنّ الله كان هكذا حبًّا في نفسي. هذه الرؤيا ليست كمثل رؤى أخرى لأنّها زاخرة بقوّة الإيمان، فلا يمكن الشكّ اذن ان الثالوث حاضر في نفوسنا بالوجود، وبالقوّة، وبالماهية. وفهم هذه الحقيقة ذو فائدة عظمى. وإذ كنت منذهلة لرؤيتي جلالاً ساميًا كهذا الجلال في شيء دنيء هذه الدناءَة كنفسي، سمعت: "ليست [نفسك] دنيئة، يا ابنتي، لأنّها مصنوعة على صورتي". فهمت ايضًا بعض أشياء عن سبب تلذّذ الله في النفوس أكثر منه في الخلائق الأخرى، أشياء بالغة اللطافة عن شرحها رغم ان عقلي أدركها حالاً.

– ٥٥ –

سبّب لي غمًّا شديدًا مرضُ أبينا فما كان شيء يهدّئه. وفيما كنت ذات يوم أتوسّل إلى الربّ بإلحاح بعد المناولة أن لا أُحْرَم منه ما دام، هو، قد أعطانيه، قالي لي: "لا تخافي".

– ٥٦ –

كنت ذات يوم في حضرة الأقانيم الثلاثة المقيمين في نفسي، وكان النور ساطعًا أيَّ سطوع فلا يمكن الشكّ بوجود الله الحيّ الحقيقي هناك، وأُعطيت فهمَ أشياء أعجز عن تكرارها، منها كيف ان أقنوم الإبن اتخذ جسدًا بشريًّا من دون الأقنومين الآخرين. أكرّر: لن أستطيع قول كلمة في هذا لأنّ بعض هذه الأشياء تحصل في عمق أعماق النفس فيبدو العقل وكأنّه يدرك، مثله مثل شخص نائم أو ناعس يخال له انه يفهم ما يقال. ورحت أفكّر بشدّة قساوة الحياة التي تحرمنا من أن نكون دائمًا في تلك المصاحبة الرائعة، وقلت في نفسي: "يا ربّ، أعطني وسيلة كي أستطيع احتمال هذه الحياة". فقال لي: "فكّري، يا ابنتي، انك، بعد انقضائها، لن تستطيعي ان تخدميني كما تخدمينني الآن، فكُلي حبًّا بي، ونامي حبًّا بي، ومهما فعلت فافعليه من أجلي، كأنّك لستِ أنتِ من تحيَيْن، بل أنا؛ فهذا ما كان يقوله القديس بولس".

– ٥٧ –

ذات يوم، بعد المناولة، أُفهمت كيف أن جسد المسيح الأقدس هذا يستقبله الآب في داخل نفسنا، كما أفهم ورأيت حاضرة فيها الأقانيم الإلهية، وكم ترضيه تقدمة ابنه هذه لأنّه يتلذّذ ويستمتع معه، إذا صحّ القول، هنا على الأرض؛ فليس ناسوته معنا في نفسنا بل لاهوته، ولذا فهو مقبول ومستساغ لديه، ويمنحنا مِننًا عظيمة. وفهمت أيضًا انّه يقبل هذه الذبيحة ولو ان الكاهن في حالة الخطيئة، ما خلا ان المِنن لا تصل إلى نفسه مثلما تصل إلى مَن هم في حالة النعمة؛ ليس لأنّ هذه المِنن تفقد قوّتها ولا تؤثّر، فهي نابعة من الاتصال بالآب الذي يقبل هذه الذبيحة، بل النقص في مَن يتعيّن عليه قبولها؛ مثل ذلك مثل الشمس، فالنقص لا يعود إليها إذا لم تتألّق لدى انعكاسها على القطران مثلها تنعكس على قطعة بلّور. لو شرحت هذا في حينه، لكنت أوضحته خيرصا ممّا فعلت. المهمّ أن نعرفَ كيف يحصل ذلك، لأنّ أسرارًا عظيمة تحصل في باطن النفس عندما نتناول القربان.

– ٥٨ –

١. في اليوم الثامن بعد عيد جميع القديسين أمضيت يومين أو ثلاثة أيّام شاقَّة جدًّا وأنا أتذكّر خطاياي العظيمة، وعانيت مخاوف من اضطهادات أساسها الوحيد شهادات زور، وخارت كلّ عزيمتي للاحتمال التي تعوّدت امتلاكها. ولئن كنت أودّ أن أتشجّع، وأحقّق أفعالاً، وارى انّ ذلك سيكون مكسبًا كبيرًا لنفسي، فقلّما أفادني الجهد، ولم يبارحني الخوف، وكانت حربًا تكدّر تكديرًا. غير اني وقعت على رسالة يقول فيها أبي الصالح أنّ القديس يؤكّد ان الله لا يأذن بأن نُجرَّب بما يفوق طاقتنا على الاحتمال. فخفّف عنّي هذا الكلام كثيرًا، غير انه لم يكن كافيًا؛ ففي اليوم التالي أخذ بي غمّ عظيم لغيابه لأني لم أجد من ألجأ إليه هذه المحنة، وكنت أراني أعيش في عزلة تامّة، وزاد من ثقل البليّة اني لم أكن أجد من يخفّف عنّي سواه فيما هو مضطر غالبًا للتغيّب، وذاك كان عذابي الأدهى.

٢. في مساء اليوم التالي، وبينما أنا أطالع في كتاب كلامًا آخر للقديس بولس. بدأت أشعر بتعزية؛ كنت أفكّر كم كان ربّنا قريبًا منّي في السابق فأراه في الحقيقة الإله الحيّ. وفيما أنا أفكّر قال لي، فيما أرى، في

عمق باطني، كما على مقربة من القلب، في رؤيا عقلية: "اني هنا؛ غير اني أريدك أن تَرَى قلّة ما تستطيعين من دوني".

٣. فطمأننت حالاً وزالت جميع مخاوفي. وفي الليلة ذاتها، اثناء صلاة الصبح، ظهر لي الربّ نفسه في رؤيا عقليّة سامية أيّ سموّ حتى بدت خياليّة، فاستقرّ في ذراعيّ كما يُصوَّر في السرّ الخامس من "أسرار الألم". أُحدثت فيَّ هذه الرؤيا خوفًا مريعًا لأنّها كانت بالغة الوضوح، وكان [الربّ] قريبًا منّي أيَّ قرب فتساءَلت ما إذا كان ذلك وهمًا. فقال لي: "لا يذهلنّك هذا، فإنّ أبي متّحد بنفسك اتحادًا أكثر عمقًا بالقياس إلى هنا".

وقد رسّخت فيَّ هذه الرؤيا حتى الساعة. ما قلته عن ربّنا دام أكثر من شهر. لقد زال الآن.

– ٥٩ –

١. كنت ذات ليلة أعاني غمًّا بالغًا بعد مضيّ زمن طويل لم أعرف فيه شيئًا عن أبي، وهو لم يكن في صحة جيّدة عندما كتب لي آخر مرّة؛ غير ان غمّمي هذا لم يكن كالسابق في أوائل مرضه؛ فقد كنت مطمئنة البال وما اغتممت من بعد مثلي إذ ذاك، غير ان القلق كان يمنعني من التأمّل. فظهر لي فجأة ظهورًا لا يمكن أن يكون من صنع المخيّلة، إذ تمثّل في باطني نور فرأيته قادمًا في الطريق فرحًا، أبيض الوجه، فالنور الذي رأيته يبيّض وجهه بدون شكّ كما هي بيضاء في ظنّي وجوه أهل السماء جميعًا؛ فتساءَلت ما إذا الألق والنور اللذان ينبعثان من ربّنا يبيّضانها. فسمعت: "قولي له ان يبدأ حالاً، فالنصر له".

٢. في اليوم التالي لقدومه، وأنا في المساء منشغلة بشكر ربّنا على المِنن الوفيرة التي منحنيها، قال لي: "ما تراك تسأليني، يا ابنتي، ولا أفعله ؟".

– ٦٠ –

١. يوم أُعلن المرسوم وكنت أشدّ إليه أقصى انتباهي، كنت مضطربة كلّ الاضطراب فلا أستطيع حتى القيام بالصلاة إذ جاء من قال لي ان أبي في ضيق شديد لأنّهم لا يسمحون له بالخروج والضوضاء عارمة، فسمعت هذه الكلمات: "يا امرأة قليلة الإيمان، اطمئني بالاً، فالأمور تجري خير مجرى".

٢. كان ذلك في عيد تقدمة سيّدتنا إلى الهيكل سنة ١٥٧٥. عقدت نيّتي على هذا: إذا حقّقت العذراء وابنها تحرّر أبينا وتحرّرنا، نحن، من هؤلاء الرهبان، فسأطلت منه أن يأمر بالاحتفال بهذا العيد بأبّهة كلّ سنة في أديرتنا، نحن، الحفاة.

٣. عندما عقدت قصدي على هذا، ما كنت أكر ما سمعت الرؤيا التي شاهدت أن على الأب تقرير هذا العيد. والآن، في عودتي إلى قراءَة هذا الدفتر الصغير، سألت نفسي ما إذا كان هذا هو العيد [الواجب الاحتفال به].

– ٦١ –

كنت يومًا أقوم بالتأمّل، فشعرت ان النفس غارقة في باطن الله فلا أرى ان العالم موجود، بل أراني مستغرقة فيه [الله]، وأُعطي لي أن أفهم بطريقة لا يمكن أن تُنسى هذه الآية من نشيد التعظيم: "وتبتهج روحي".

– ٦٢ –

كنت ذات يوم أفكّر في خطّة إلغاء دير الكرمليات الحافيات هذا وما إذا كان المقصود على الحافيات جميعهنّ، فسمعت: "هذا ما يسعون إليه، لكنّهم لن يحققوا قصدهم، بل سيفشلون".

– ٦٣ –

كنت قد بدأت بالاعتراف لدى شخص في المدينة التي أقيم فيها حاليًا، وبعد أن أظهر لي كثيرًا من حسن الاستعداد حتى بعد قبوله تدبير نفسي، إنكفأ عن المجيء إلى هنا. وكنت ذات ليلة أقوم بالتأمّل، وأفكّر في الفراغ الذي يحدثه لديّ غيابه، فهمت ان الله يحول دون مجيئه لأنَّ المناسب ان أعالج أمور نفسي مع شخص من مكان إقامتي. فشقّ عليَّ ذلك لاضطراري أن أعرف شخصًا قد لا يفهم حالي ويقلقني، ولأني أكنْ مودّة لمن يمارس المحبّة بسماع اعترافي؛ رغم اني كلّما سمعت هذا الآخر يقوم بالوعظ امتلئ فرحًا روحيًّا، إلاّ ان مشاغله العديدة كانت تحملني أيضًا على اعتباره غير مناسب. فقال لي الربّ: "سأحمله على سماعك وفهمك. اكشفي له ضميرك فسيجد علاجًا ما لمحنك". وقوله هذا الأخير إنّما جاء، في اعتقادي، لأنّي كنت إذ ذاك منهوكة لبعدي عن الله. وقال لي جلاله أيضًا عندئذٍ انه يرى جيّدًا المحنة التي أقاسيها، على ان الأمر لا يمكن أن يكون خلاف ذلك ما دمت أحيا في هذا المنفى؛ فكلّ ما يحصل لمزيد من الخير لي؛ فغرّاني كثيرًا.

وهذا ما حدث لي؛ فهو يرتاح لسماعي، ويجد الوقت للمجيء، وقد فهمني وطيّب نفسي، انه لاهوتي كبير وقدّيس.

– ٦٤ –

في عيد تقدمة العذراء، فيما كنت أسلّم بحرارة أمرَ شخص إلى الله، واعتبر ان مداخيله والحرية التي ينعم بها ما زالت عائقًا لسموّ القدّاسة التي كنت أتمنّاها له، تمثّل أمامي سُقمه وفيض النور الذي كان يوفّر للنفوس، فسمعت: "انه كثير الخدمة لي، لكنّ اتّباعي مجرّدًا من كلّ شيء مثلي على الصليب أمر عسير. قولي له ان يثق بي". جاءت هذه الكلمات الخيرة لأنّي تذكّرت انه لا يستطيع، بصحّته الهزيلة، أن ينهضَ إلى كمالٍ رفيع كهذا الكمال.

– ٦٥ –

فيما كنت أفكّر ذات يوم بعنائي من أكل اللحم وعدم ممارستي التقشّف، سمعت ان الأمر أحيانًا يعود إلى حبّ الذات أكثر من الرغبة في التقشّف نفسه.

– ٦٦ –

كنت ذات يوم لهن لأني أهنت الله، فقال لي: "خطاياك كلّها أمامي وكأنّها لم تكن؛ تشجّعي لما بعد الآن فأن مشقاتك ما انتهت".

عشية عيد العنصرة وفي صومعة الناصرة في دير القديس يوسف في أڤيلا، كنت أتأمّل المنّة الكبرى التي كان الربّ قد منحني إيّاها في مثل هذا اليوم قبل حوالي عشرين سنة فأخذ لي اندفاع واضطرام روح شديد فتعطّلت حواسي. فسمعت من ربّنا في هذا الاختلاء العميق ما يلي:

"أن أقول من قِبَله لهؤلاء الآباء الحفاة أن يجتهدوا في حفظ أربعة أشياء، فإن يحفظوها دائمًا فإنّ الرهبانية سيطّرد نموّها، وان خالفوها فليدركوا انّهم يمضون في انتقاص مبادئها. الأول: ان يكون الرؤساء متوافقين. الثاني: لئن تكثر الأديار، فليكن عدد الرهبان في كلٍّ منها قليلاً. الثالث: أن يقّللوا علاقاتهم بالعلمانيين، وهذا لخير نفوسهم. الرابع: أن يعلّموا بالمثل أكثر من تعليمهم بالكلام.

كان هذا في السنة ١٥٧٩. ولأنّه حقيقة خالصة، أوقّع باسمي.

تريزا ليسوع.